د. عبد الرحمان خواجا

ليال بلا قمر

مذكرات عائد من معتقلات
درب مولاي الشريف . أكدز و قلعة مكونة

د. عبد الرحمان خواجا

ليال بلا قمر

مذكرات عائد من معتقلات
درب مولاي الشريف . أكدز و قلعة مكونة

إلى روح كل من سيق في الظلام ، و زج به في الظلام ، و بات يعاني من البطش و الظلم و القهر و الحرمان ، حتى مات في الظلام ، فرمي به في حفرة سحيقة وسط الظلام .

إلى روح ذلك " الجندي المعلوم " ، الذي كان الإيثار شيمته ، و كان التمرد على الجور شكيمته ، فضحى بكل شيء في ظروف " يفر فيها المرء من أمه و أبيه " ، من أجل أناس كان أغلب الظن أنهم لن يعودوا يوما إلى النور ، ليشهدوا له بالعرفان ، فيجازوا الإحسان بالإحسان .

إلى روح المناضل الكبير ، و الصديق العزيز : " الحسن متيق " ، الذي كنت أتمنى أن يكون من أوائل المطلعين على هذا العمل المتواضع قبل نشره ، لكن يد المنون أبت إلا أن تغيبه عن الأنظار ، و تختطفه دون سابق إنذار .

مقدمة

لطالما راودتني فكرة الكتابة عن تجربة السجن التي عشت أطوارها ، و قاسيت مرارة أيامها و لياليها . فقد حاولت منذ السنوات الأولى من خروجي إلى الحياة من جديد ، أن أكتب شيئا عن تلك المعاناة الطويلة ، لكن الشروط اللازمة لذلك لم تكن متوفرة . فقد وقفت عوائق كثيرة ، حائلة دون ذلك المشروع الذي ظل عالقا بالذاكرة حتى إشعار آخر ...

كان لاصطدامي بواقع تميز بالقساوة و الإحباط ، وقع شديد على نفسيتـي ، جعلني أشعر في البداية و كأنني غريب في مجتمع يكاد يلفظني كما يلفظ البحر جثة الغريق ...

و لما اتخذت من العودة إلى الدراسة ملجأ ألوذ به من شبح الفراغ القاتل و القلق المميت ، اضطررت أن أؤجل الفكرة إلى حين . و جاءت بعد ذلك مرحلة الانخراط في مجال العمل و بناء الأسرة ، لتأخذ نصيبها من الوقت و الانشغال ... لكن العائق الأهم من كل هذا ، كان يتمثل في الشعور بالتضايق و انعـــدام الحريـة ، التي هي " فرض عين " في كل كتابة و تعبير ...

أما و قد أصبح الخوض في مواضيع " سنوات الجمر " أمرا متاحا ، بل أصبح مطلوبا في إطار " حفظ الذاكرة " ، فقد تهيأت لي فرصة الإسهام بهذا العمل المتواضع ، الذي أروم من خلاله أن أصور بعض ما مورس على المجموعة التي كنت أنتمي إليها ، من أساليب التعذيب و الحرمان .

و لا أدعي أنني أحطت بكل فصول تلك المأساة الطويلة ، و لكنني حاولت قدر الإمكان أن أرسم أهم ما طبع ذاكرتي من أحداث و مشاهد ، مع حرصي الشديد على صدق المشاعر و استقلال الرؤية .

الجزء الأول
بين درب الشريف و قصر الباشا

أم الليالـــــــي

لم تكن تلك الليلة في ظاهرها سوى ليلة كسائر الليالي .
إلا أنها كانت ليلة بلا قمر ! .. موقعها في تاريخ الميلاد هو السابع عشر من مارس ، من السنة السادسة والسبعين في القرن العشرين . لكن وقعها في ذاكرتي لم يكن يعد بالساعات ، وإنما بالشهور ، ولربما بالسنين ! ..
كنت قد لبست ثياب النوم و استلقيت على السرير ، رغم أن الساعة لم تعلن بعد التاسعة مساء ! قررت ذلك على غير عادتي ، إذ تعودت أن أسهر مع الأصدقاء حتى وقت متأخر من الليل .. تركتهم في الغرفة الأمامية يتفرجون عبر التلفاز على مباراة لكرة القدم ، وآثرت أن أخلو إلى المذياع علني أسمع أخبارا جديدة . أخبار جديدة ؟ نعم ! لقد تسارعت الأحداث في تلك الأيام بشكل مثير في الصحراء !

كان لصدور الحكم الاستشاري لمحكـــمة العدل الدولية «بلاهاي» ، دور أساسي في تحريك تلك العجلة التي باتت تدور بسرعة الضوء .. أعلنت المحكمة أن المغرب لم تكن له سيادة على الصحراء ، ولا للمجموعة الموريتانية أيضا . لكن المملكة المغربية اعتبرت أن « لاهاي» أنصفتها إذ أقرت بوجود روابط بيعة بينها وبين بعض القبائل ... قرر الملك الحسن الثاني يوم السادس عشر من أكتوبر لسنة 1975 تنظيم مسيرة نحو الإقليم. وجند من أجل ذلك مئات الآلاف من الرجال والنساء .

و شاءت الأقدار أن يكون « الجنرال فرنكو» الذي حكم إسبانيا بقبضة من حديد ، على فراش الموت ' وهو الذي كان يهيء لإنشاء دولة تابعة للكيان الاستعماري بالمنطقة . توفي الجنرال في تلك الأيام ، تاركا الحكم للملك الشاب «خوان كارلوس» الذي لم يرد أن يبدأ توليه بمغامرة غير محسوبة العواقب ..

دخل الأطراف الثلاثة إذن ـ المغرب وموريتانيا من جهة ، وإسبانيا من جهة أخرى ـ في مفاوضات سريعة تسابق الزمن ، تمخضت عنها الاتفاقية الثلاثية الموقعة «بمدريد» في الرابع عشر من نونبر من تلك السنة .

كل ذلك تم وراء ظهر جبهة « البوليساريو» الحركة الفتية التي برزت منذ مايو 1973 ، معتمدة على الكفاح المسلح من أجل تحرير الإقليم من الاستعمار ، والتي بدا أن بروزها لم يرق لأي من اللاعبين الآخرين .

لم تقف الجبهة وقفة المتفرج على الأحداث ، بل بادرت بإعلان قيام «الجمهورية الصحراوية» غداة دخول الاتفاقية المذكورة حيز التنفيذ ، أي يوم السابع والعشرين من شهر فبراير 1976 ، وذلك ببلدة «البير لحلو» التي سبق أن حررتها خلال حربها ضد الإسبان .

كنت أفكر في كل هذا وأنا أصغي إلى برنامج « الساقية والوادي على طريق الحرية » من الإذاعة الليبية، و الطفل « عماد » – ابن الجيران – يترنح في خطاه الأولى بالقرب مني ، وكنت منشغلا بالأنباء المتواترة عن حملة الاعتقالات الواسعة التي شملت العديد من المدن والبوادي في الجنوب . وإذا بباب الغرفة يفتح ، ويطل منه شخص غريب ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، يلبس معطفا كبيرا أسود :

ـ ماذا تفعل يا « عبد الرحمان ؟ »

تبادر إلى ذهني بداية أنه أحد معارف صديقي « أنور» ولكن نبرة سؤاله

الجامدة تسربت إلى نفسي كجرعة السم القاتل .وبينما أنا أتهيأ للنهوض من مكاني ، دخل شخص آخر ، نقيض لصاحبـــه في كل شيء : قصير القامة ، سريع الحركة ، خفيف كالريشة في مهب الريح . لم يلـق حتى السلام . بل بدأ لتوه يعبث بكل شيء كالزوبعة . ألقى الملابس والكتـــب و الفراش وهو يفتش بعناية في باطن الأشياء . حتى مقلمة أنور شتت أقلامها وقلبها من الداخل ثم صاح في وجه صاحبه :

ـ أنظر ماذا كتبوا هنا : « عميل الامبريالية والاستعمار » !

أجابه صاحب المعطف الكبير ببرودة ظاهرة :

ـ وماذا في الأمر ؟ إنهم طلبة جامعيون !

ثم التفت الي وقال :

ـ أتدري لماذا جئناك يا عبد الرحمان ؟

و استطرد قبل أن أجيبه :

ـ لقد بلغتنا شكوى من صديقتك التي تزورك هنا . إنها تدعي أنك اعتديت عليها . لذلك فالمسؤول يطلبك لبضع دقائق!

شعرت في تلك اللحظة وكأن طعنة سكين تنغرز في صدري . لقد فهمت من تلك الجملة السخيفة كل شيء !

أخذت أتهيأ لألبس أكبر قدر من ثيابي . وتذكرت جلبابي الذي تركته في بيت خالي بضاحية الرباط . قلت للضابط :

ـ أريد أن يأتيني أحد الأصدقاء بجلباب .

ـ لا ، لاداعي . ستعود الليلة أو غدا على أبعد تقدير .

لماذا الجلباب ؟

لكن « محمدا » هب من مكانه مستأذنا :

ـ أريد أن آتيه بجلباب من فضلك. إن شقتي ها هنا ، في العمارة المقابلة .

و فعلا ، جاء محمد بذلك الجلباب الأحمر .. لبسته وأنا متجه نحو الباب ، وتذكرت أنني لا أحمل درهما واحدا في جيبي ، فالتفت إلى « أنور» سائلا :

ـ ألديك شيء من النقود ؟

أدخل يده في جيبه وأخرج خمسة وعشرين درهما هي كل ما كان يملك ! نظرت إليه مودعا ورمق إلي بدوره وهز رأسه ، وخطفت النظر إلى الأصدقاء الجالسين في وجوم ، ثم خرجت مرفوقا بزواري الذين أصبحوا أربعة بدل اثنين! . الظلام دامس في الزقاق . حتى المصابيح لم تكن مضيئة ، كأن القدر تعمد أن تمر عملية الاختطاف في سواد مطبق !

دفعوني في هدوء داخل سيـــارة صغيرة من نوع « سيمكا 1000» صفراوية ، ليس « فاقعا لونها » ، ولا هي « تسر الناظرين » . بل أصبحت تميل إلى لون التراب لما مر عليها من عوامل التعرية . ومع ذلك لا زالت تحمل علامة VV في لوحتها الخلفية .. كنت أجلس في الخلف وإلى جانبي الرجلان اللذان ظهرا بعد مغادرتي للشقة . كلاهما يلبس جلبابا غليظا من الصوف ، ويضع على رأسه قبعة تغطي أذنيه . و ما أن تحركت السيارة حتى التفت إلي ذلك الشخص الذي آثر أن يتصرف تجاهي بعدوانية صريحة منذ الوهلة الأولى :

ـ ستوجهنا الآن إلى المكان الذي يسكن به « بلال » .

رد عليه صاحب المعطف وقد أخذ المقود ، كأنهما اتفقا أن يخطئ الأول دائما ، فيصحح له الآخر :

ـ ليس بلال ، بل « بلالي محمد فاضل » .

كنت أعرف أن بلالي ذهب إلى العيون لزيارة والدته التي لم يرها مند سنوات ، بحيث كانت الحدود شبه مغلقة بين المغرب والصحراء زمن الاستعمار الاسباني . ذهب بلالي إلى هناك ، و من ثم التحق بالجبهة مع

مئات الأسر التي انسحبت غداة الإعلان عن الاتفاقية الثلاثية . كنت أعرف هذا ، لكنني فضلت أن أجيب الرجلين أنني لست أدري أين أصبح يسكن محمد فاضل ، إذ افترقنا منذ سنة أو أزيد ، وانقطع الاتصال بيننا بحيث لم نكن ندرس في نفس الكلية .

ـ إذا كنت لا تريد أن تدلنا على صاحبك ، فسنضطر للذهاب بك إلى المفوضية حتى يقرر المسؤول في أمرك .

هكذا قال لي السائق و هو يعرج إلى اليسار متظاهرا بالتأسف على الاضطرار لتقديمي إلى المسؤول . و كأنه نسي أن هذا الأخير طلبني في موضوع الفتاة التي « تعسفت عليها ! » ..

وقفت السيارة أمام المفوضية المركزية . و ما أن ولجت بابها الرئيسي حتى انتابني شعور عميق بالضيق والاختناق . شعور مؤلم بالخروج من عالم الحرية والكرامة، إلى عالم الحرمان والمذلة والمهانة .. وداعا أيتها الحرية الحبيبة ! وداعا يا ساحرة القلوب الولهى ، يا من تغنى بك الشعـــراء و روى عنك الكتاب والمفكرون ، و قضى من أجلك الشهداء والمناضلون ! كان صاحب المعطف قد أمسك بيدي كالصديق الحميم ، ومشى بي في ممر صغير وقفنا في نهايته على شرطي يجلس فوق كرسي ، وأمامه طاولة صغيرة . فتح الرجل سجلا بين يديه ، وأخذ مني بطاقة التعريف ونقل منها اسمي وعنواني ، ثم قام من مكانه بعد أن انصرف صاحبي ، وقادني حتى وصلت إلى باب حديدي ، فتحه بعنف ودفعني داخل الزنزانة ، ثم أغلق الباب من خلفي .

وجدت نفسي وسط مجموعة من خمسة أفراد لم يكادوا يعيرون اهتماما لقدومي . فقد كانوا غارقين في أحاديث ثنائية عادية تماما ، كأنهم جالســون في أحد المقاهي الهادئة يحتسون كؤوس الشاي أو القهــوة !

و ما هي إلا بضع دقائق، حتى فتح الباب وأطل منـه الشرطي مشيرا إلي بالوقوف . خرجت من الزنزانة و توجهت بصحبته إلى الممر القريب ، ثم صعدنا إلـى الطابق الأول حيث كان صاحب المعطف ينتظرنا في أحد المكاتب . أخذ يسألني عن كل ما يتعلـق بشخصي ويكتب في مطبوع أصفر ، حتى إذا انتهى من تدوين تلك المعلومات ، تطـرق من جديد إلى السـؤال عن « محمد فاضل » ، لكنه لم يجد مني جوابا شافيا ، سوى أني لا أعلم عنه شيئا . أومأ الى الشرطي أن يأخذني إلى مكاني ، فرجعت إلى الزنزانة وجلست بالقرب من أحد الأشخاص الخمسة . كان رجلا قصير القامة ، نحيل الوجه ، يناهز الخمسين ، لا يمل من الكلام وهو يخاطب شخصا آخر بجانبه، و لا يتوقف إلا حين تباغته موجة من السعال الكثيف ، يتوجها ببصقة كبيرة في وعاء مطاطي صغير لا يبرح يده . و كان في بعض الأحيان يطلق ضحكة مثيرة تكشف عن لثة عارية من الأسنان . نظر إلي بنوع من الإزدراء و قال :

ـ أنت أيضا أتوا بك إلى هنا ؟ أين أمسكوا بك ، في الحانة أم في الشارع ؟

قلت له :

ـ لا ، بل أمسكوا بي في شقتي .

ـ و من أنت حتى تكون لك شقة ؟! (تساءل الشيخ في تعجب)

أجبته أنني طالب جامعي .

ـ آه ، أنت طالب ، إذن لم تكن سكران مثلنا ، و أين ذهب بك الشرطي قبل قليل ؟

حكيت عليه أنني صعدت إلى الطابق الأول ، و أن الضابط استجوبني . عندها هز رأسه مليا ثم همس في أذن صاحبه :

ـ القسم السياسي !

ثم حدق إلي و قال :

ـ يا ولدي ، إن الذباب لا يدخل إلى الفم المسدود !

و عاد إلى صاحبه يحدثه و تركني أتجرع علقم أول ليلة أقضيها وراء القضبان ، بعيدا عن أنوار الحياة و بهجتها ، و هي لا تفصلها عني إلا بضعة أمتار . وتذكرت قول الشاعر في رثاء ابنه :

« طواه الردى عني فأضحى مزاره

بعيدا على قرب ، قريبا على بعد ! »

شرعت أتفحص الزنزانة وجدرانها ، وقلبي يكاد ينفطر من الحزن و الألم . مساحـــــة الغرفة مربعة الشكل ، لا يتعدى الضلع فيها ثلاثة أمتـار . لا وجود فيها لأي فراش. في إحدى زواياها يوجد كنيف عار لمن أراد أن يقضي حاجته . و هناك أنبوب ينحدر من الحائط صوب الثقب ، وينصب منه الماء من حين لآخر ، محدثا صوتا مزعجا ومثيرا للتقزز، لا علاقة له بالطمأنينة التي يبعثها خرير المياه في الحياة الطبيعية ! .. أما الجدران فقد كانت متسخة بما فيه الكفاية . وقد تخللتها كتابات بذيئة في الغالب ، خطت بحروف لاتينية، و رسوم معبرة هي أيضا عن واقع فظيع . فهناك مثلا صورة قملة سمينة انتقلت من جسد آدمي ، بعد أن تركته عبارة عن هيكل عظمي خائر! كل هذه الرسوم والعبارات ، زادها بشاعة كونها لم تكتب بالمداد الطبيعي ، و لا بالصباغة الزيتية ، و لا حتى بالفحم ، و إنما كتبت ببراز البشر ! لم أنتبه في البداية لهذا الأمر، حتى إذا بذاكرتي تسبح في عالم الكتابة على الجدران ، حيث يعبر البعض عن مشاعرهم إزاء آخرين يحبونهم ، فيرمزون إلى ذلك بعبارات عاطفية مألوفة ، أو بصور القلب

المصطلح عليها ، و قد يصيبه سهم فتاك فيجعله داميا جريحا ! .. و آخرون يكتبون أسماء يكرهون أصحابها ، فيذيلونها بكلمات وأوصاف لا تروق و لا تليق .. و هناك من يلجأ إلى الكتابة في المراحيض ، مغتنما فرصة الخلو إلى الذات ، لإفراز ما تكنه خاطره من أحاسيس وأفكار . و قد يميل هذا الصنف الأخير إلى التخصص في أمور السياسة ، ليعبر عن تذمره وسخطه على الأوضاع ... كل هؤلاء وأولئك لم يكونوا يعدمون وسائل للكتابة ، بل دأبوا على استعمال شتى الأدوات والألوان . حتى النقش على الحيطان والأبواب الخشبية كان من الأسباب المتاحة ... و عاد بي التفكير إلى اللوحة المرسومة أمامي . فإذا بي أطرح السؤال عن الوسائل المتوفرة للكتابة ها هنا ، و أمعن النظر في ذلك اللون الغريب . فهو يميل إلى الصفرة بالنسبة للرسوم التي تبدو حديثة العهد ، بينما ينحدر إلى السواد كلما أصابها التقادم . و ما أن أيقنت من طبيعة الأداة المستعملة ، حتى خيل إلي أن أنفي امتلأت بتلك الرائحة الكريهة ! وبدأت أشعر بدوار شديد ، ثم بصداع مميت في رأسي ، ثم أحسست بالغثيان !..

كان لا بد أن أستفز كل قواي في تلك اللحظة العصيبة ، و ألا أستسلم للانهزام منذ الليلة الأولى . قلت لنفسي :

ـ كيف ؟ أتذعن للإنهيار بهذه السهولة ؟ أليس السجن معقلا للأحرار ؟ ألا يشرفك أن تلتحق بركب النضال وراء الأسوار ؟ انهض فالمشوار طويـــل ، و هذه مجرد بداية . عول على الكثير ، و تحمل الاعتقال بما يليق من صمود و تحد ، وإلا سقطت في مزبلة التاريخ مع الجبناء والتافهين !

اقتربت من ذلك السجين الذي ما فتئ يلقي خطابه الطويل ، فحاولت أن أقاطعه بالسؤال :

ـ منذ متى و أنت هنا ؟

فأشار إلي أنه يقضي ليلته الخامسة عشرة ، و أنه لا مانع لديه أن يمدد الإقامة إذا اضطر إلى ذلك . و أطلق ضحكته الممزوجة بالسعال . ثم سألته ما إذا كان يسمح لهم بالخروج إلى الشمس خلال النهار . قال لي إنهم يخرجون كل صباح لاستنشاق الهواء في حديقة صغيرة معشوشبة ، يوجد بإحدى جنباتها مقهى يعد القهوة والشاي وشتى أنواع المشروبات الغازية، والخبز والمربى والحلويات ... قلت لنفسي و قد صدقته بسذاجة غبية :

ـ أرأيت ؟ ليس الأمر بكل هذه القتامة !

كان باب الزنزانـة يفتح بين الفينة والأخرى ، ليدخل منه ضيف جديد ، حتى وصل عددنا حوالـــــي العشرة . بدأت الغرفة تضيق ، و بدأت حرارتها ترتفع بفعل الازدحام والتعرق ، علاوة على الحرارة التي يبعثها المصباح الكهربائي فوق رؤوسنا . كل ذلك زاد من توتري و إحساسي بالضيم الشديد . لكن ، ماذا عساي أن أفعل ؟ كان آخر القادمين شاب التحق بالقافلة في الثانية صباحا . اقترب مني و حياني فحييته ، و بدأ الحديث عن الهوية . عرفت أنه طالب في كلية الحقوق ، و أن الدورية قبضت عليـه و هو يعبر أحد الشوارع . أخذنا إحدى الزوايـــا في الزنزانة ، و بدأنا نتحدث و قد تمددنا على الأرض و توسدنا أحذيتنا . طفق يسألني عن أمري ، فوضعته في الصورة ، قائلا إنني لا أعرف بالضبط لماذا تم اعتقالي ، لكنني طالب من « الجنوب » ، و قد يكون ذلك سببا كافيا للقبض علي في إطار الحملة العشوائية التي شملت الكثير من أبناء الصحراء . أبدى لي الشاب تعاطفا كبيرا ، لكنه لم يخف تخوفه من خطورة الموقف الذي وقعت فيه . و أعلن استعداده لمساعدتي في أي شيء يستطيع القيام به . شكرته كثيرا على طيب مشاعره ، وقلت له :

ـ لا أرى حاجة إلى شيء سوى إخبار أسرتي ، لكنهم سيعلمون عن طريق

مضت تلك الليلة الطويلة القاسية و لم تغمض لي جفون . و لما كانت الساعة الثامنة صباحا ، أطل الشرطي من كوة الباب ، و بدأ يرمي علينا قطع خبز باردة ، يابسة ، صلبة كالحجارة . التفت إلي الكهـــل و قال لي :

ـ خذ خبزتك ، فإنك ستحتاج إليها خلال النهار ، و إياك أن تصدق ما قلته لك البارحة عن الحديقة و العشب و الجبن و المربى ! أما هؤلاء (وأشار إلى الأشخاص الآخرين) فسينصرفون جميعهم بعد ساعات .

رحلة " الدرب "

و فعلا ، فقد شرع الشرطي ينادي من حين لآخر فيخرج أحدهم ، حتى بقيت لوحدي في تلك الغرفة الكئيبة . و في الحقيقة ، قد وجدت بعض الارتياح في خلو المكان ، خاصة و أني لم أكن أجرؤ على الذهاب إلى الكنيف المكشوف على مرأى من الآخرين ، رغم أن الشيخ قدم لي درسا تطبيقيا قبل مغادرته ...

مرت الساعات ببطء مخيف ذلك الصباح . كان الصمت الرهيب يخيم على الزنازن و هي فارغة ، إلا العنبر المقابل . فقد كنت أسمع بين الفينة والأخرى صوتا قادما من هناك ، يشبه الهذيان . قمت من مكانـي و توجهت نحو الباب و أنا أمشي بحذر شديد ، مخافة أن أثير انتباه الحارس الجالس على كرسيه في إحدى الزوايا .

أخدت أطل " بنصف عين " من الكوة ، فإذا بي أرى رجلا بين العقدين الثالث و الرابع ، يكاد يخرج رأسه من ذلك المنفذ الصغير . تذكر ملامحه ببلاد الهند وباكستان ، حيث البشرة السمراء والشعر الأسود الناعـم . كان ينطق بلغة غريبة تؤكد أنه غريب الدار ، لغة مشحونة بنبرات الاستجداء والتوسل . غير أن الشرطي لم يكن يعير لكلامه كبير اهتمام ، و إنما كان يرسل من حين لآخر عبارة سب من بعيد ، حتـى إذا " نفد صبره " أتى إليه مسرعا و دفعه بملء كفه على الوجه دون عطف ولا شفقة ! تكرر المشهد

مرات عديدة ، حتى بدا لي أن الرجل مختل عقليا ، و لم يعد يدرك عواقب الأشياء ... عدت إلى ركنتي و تسمرت بها و قد ملأني حزنا ما رأيته و سمعته . و ظللت أترقب المجهول غير عابئ بالجوع الذي بدأ يطرق الأبواب علي بإلحاح متزايد ، حتى كانت الساعة الخامسة بعد الزوال . جاء صاحب المعطف مرة أخرى و أمرني بالخروج . مشيت خلفه حتى اقتربنا من باب المفوضية ، فإذا برجل أصلع ينتظرنا عند مؤخرة سيارة R4 مصفحة كالصندوق . أشار إلي بالصعود من الخلف ، فأغلق باب السيارة وصعد إلى الأمام بجانب الضابط الذي أخذ المقود كعادته ، ثم تحركت السيارة ...

كنت أرى من خلال قبعة الجلباب التي غطيا بها رأسي و وجهي. فقد خرجنا من « باب الرواح » ودخلنا إلى « شارع النصر » ثم عرجنا على « شارع الحسن الثاني » و توجهنا إلى طريق الدار البيضاء . بدأت الرحلة نحو المجهول ، وبدأ الشعور بالغبن يعصر قلبي ، فترددت في ذهني صيحات مجموعة « ناس الغيوان » وهي تقول تارة :

« ـ فين غادي بي خويا فين غادي بيا ؟ »

و تارة تقول :

« ـ قلبي جا بين ، يدين حداد ، حداد ما يحن ، ما يشفق عليه ! » ...

و طفقت أسائل نفسي :

« ـ إلى أين سينتهي بي المطاف يا ترى ؟ و هل سأعود يوما إلى الحياة الحرة ؟ وماذا ينتظرني من عذاب ومعاناة ؟... »

بدأت أذكر إخوتي و أبي وأتخيل كيف سيتلقون الصدمة ، وأذكر أصدقائي بشوق كبير ، و كأن العهد بهم أصبح بعيدا بعيدا !. و فجأة توقفت السيارة ، و رأيت الرجلين يتحاوران بإشارات لم أفك رموزها . بعدها نزل صاحب المعطف و فتح الباب الخلفي و قال لي :

ـ أدخل يديك في فجوتي الجلباب !

تملكني رعب شديد ، إذ تبادر إلى نفسي أنهما سيقومان بقتلي في هذا المكان الخالي، بعيدا عن الأنظار ! « و إلا لماذا يتوقفان بي هكذا في منتصف الطريق ؟! » توسلت إلى الرجل أن يتركني ، فنهرني بصرخة غاضبة :

ـ لماذا لا تسكت ؟ ماذا تظنني فاعلا بك ؟ هات يديك وإلا قطعتهما لك !

هكذا تحول الضابط في لحظة واحدة إلى حيوان متوحش ، و هو الذي كان يبدو هادئا منذ ليلة البارحة ! مددت يدي داخل الجلباب ، فشدهما بذلك القيد الحديدي الذي طالما سمعتهم يتحدثون عنه منذ أيــام « جيش التحرير » دون أن أراه .

إنه « رقم 5 » كما دأب العامة أن يعرفوه ... واستأنفت السيارة رحلتها في اتجاه « الدار البيضــاء » .. وصلنا إلى المدينة ، و بدأنا نشق شوارعها الطويلة ، حتى توغلنا في المناطق الآهلة ، حيث حركة السيارات كثيفــة ، و العمارات مزدحمة ، والضجيج متصاعد .

توقفنا أخيرا عند حاجز أمني يحرسه شرطي . تقدم هذا الأخير لتوه نحو السيارة ، و انحنى على السائق الذي قال له بصوت خافت :

ـ نحن قادمون من الرباط .

رفع الشرطي الحاجز ، و تقدمنا داخل ساحة مفروشة بالحصا. أنزلني الرجلان و قاداني إلى أن ارتقينا خمسة أدراج أو ستة ، ثم ولجنا إلى فناء مكسوة أرضيته بالفسيفساء . و جهني صاحب المعطف جانبا ، و دفعني نحو الحائط بغلظة ظاهرة حتى أوقفني و جبيني يلمس برودة الجدار . ثم عصب عيني بخرقة خضراء سميكة، و رد القبعة على رأسي . كانت الجلبة كبيرة ، كأنك في أحد الأسواق الشعبية ، حيث الباعة يتنافسون في إشهار منتوجاتهم والشراة يتزاحمون لاقتناء ما يطلبون . و كنت أسمع كلمات

غريبة : « إكستريل ، بول ، تشانكلى ، ديزويت ».. و ما هي إلا لحظات ، حتى سمعت وقع خطوات وئيدة تأتي من بعيد تقترب نحوي شيئا فشيئا. و امتلأت أنفاسي برائحة عطرة قوية . ثم شعرت بأشخاص يقفون وراء ظهري . أدارني صاحب المعطف نحوهم بعنف ، ونزع القبعة عن وجهـــي و سمعته يتمتم :

ـ هذا « فلان » يا سيدي . أما الآخر فلم نمسك به بعد .

ثم رد القبعة على رأسي من جديد ، و ولى وجهي إلى الحائط ، و سمعت خطواتهم تبتعد في انتظام . و جاء صاحب المعطف ليسحب قيده هـذه المرة ، و ليهمس في أذني بنوع من التودد:

ـ وداعا يا عبد الرحمان ، اصبر ، و كن رجلا . إن أبناء الجنوب رجال أشداء !

و ما أن غادر المكان حتى تسلمتني يد قوية من ذراعي دون كلام و جرتني إلى مكان قريب و أجلستني على الأرض . كانت الجلبة تخبو هنيهة ، ثم تعود بحدة متصاعدة . رباه ما هذه البئر السحيقة التي وقعت فيها؟ أيصح أن أعيش وسط هذا الصخب و عيناي معصوبتان ؟ و تذكرت العميان الذين حكمت عليهم يد القدر بالعيش في عتمة دائمة ، في خضم الحياة ! قلت في نفسي :

ـ ما أعظم العميان و ما أقوى عزيمتهم !

أحسست بكماشة الجوع تشد بطني بقوة ، فهممت أن أنادي على أحدهم ليأتيني بشيء من الطعام . لكنني ترددت في صيغة الطلب . هل أقول « يا سيدي » ؟ هل أقول « يا شرطي »؟

و من قال لي إنه شرطي ؟ هل أقول « يا حارس » ؟ و أما إذا لم تعجبه هذه التسمية ؟ و ارتأيت في الأخير أن أخاطب نفسي حتى لا يلومني أحد ! وضعت يدي على بطني وقلت :

ـ آه ، منذ أكثر من أربع و عشرين ساعة لم أذق الطعام ، و لا حتى الشـــــراب !

و كان الجواب سريعـــا : فقد انهالت علي ركلة عنيفة أدارتني بتسعين درجة !

ـ من أذن لك بالكـلام يا كلب ؟ أتظن نفسك في الشـارع ؟ إن الكـلام محظور !

حبست أنفاسي و صعدت من عمق صدري حشرجة طويلة كدت بعدها أن أجهش بالبكاء ، إذ شعرت بضيم شديد ! ولكن ما فائدة البكاء في هذا المكان ؟ و هل يسمح به حتى ، ما دام نوعا من الكلام ؟!

رغم هذا رأيت صحنا معدنيا صغيرا ينزل أمامي كأنه يهبط من السمـاء .

و سمعت صوتا يقول :

ـ كل ، تأكل السم !

كان في الصحن محتوى علبة من السردين و قطعة خبز . ثم سقط كوب معدني به ماء . شربت الماء في جرعة واحدة ، و أخذت مضغة خبز أغمستها في السردين . و لكن الحارس أوقفني بعنف شديد و أمسك معصمـــــــي و مضى يهرول بي حتى أدخلني في مكتب يؤدي إليه ممر طويل . أجلسوني على كرسي خشبي صغير ، و صاح في وجهي ذلك المسؤول الذي عرفت في ما بعد أنه عميد مشهور ، تميز بباعه الطويل في مجال التعذيب والبطش و التنكيل :

ـ ما اسمك ؟

ـ عبد الرحمان .

ـ من أين أتيت ؟

ـ من كلميم .

ـ سنحفر لكم حفرة ونردمكم فيها أحياء أنتم أبناء كلميم و طنطان . و أين تدرس ؟

ـ في كلية الطب بالرباط .

ـ و من يعطيك المنحة ؟

ـ الدولة .

ـ أليست الجزائر ؟

ـ لا .

ـ و لماذا تعبد الجزائر يا لئيم ؟

ـ لا علاقة لي بالجزائر يا سيدي .

عندها لكمني أحد معاونيه على بطني حتى وضعت يدي من شدة التأثر ، ثم نزل علي بصفعة حادة في الوجه حتى سمعت رنينها في أذني .

ـ هل تعرف « الولي » ؟

ـ لا .

ـ هل تعرف « أحمد محمود » ؟

ـ لا .

و استمر يسـرد الأسماء دون أن يتيح لي مجالا للجواب . و ختم اللائحة باسم « محمد فاضل » .

قلت له إن هذا الأخير كان يسكن معي فعلا في السنة الماضية ، لكننا افترقنا و لم أعد أراه منذ ذلك العهد . قال العميد مختتما الجلسة :

ـ هؤلاء الأشخاص كلهم موجودون عندنا ، و إنهم تحدثوا عنك ، وإذا لم تعترف غدا فسوف أسلخ جلدك !

عاد بي الحارس إلى مكاني . و كم كانت صدمتي قوية لما رأيت أن صحن السردين قد اختفى تماما ! كنت أتمنى أن أسد به رمقي رغم كل

الإحباط الذي خلفه في نفسي أول لقاء مع « ملك الدرب ».! جاء الحارس مرة أخرى ، فجرني إلى غرفة قريبة . هناك وجدت شخصا أمرني أن أنزع ثيابي ، و ناولني قميصا وسروالا من « الكاكي » ، لبستهما بسرعة ، و أحكم على زندي قبضة قيد الحديد ، ثم بدأ يقرأ علي النظام الداخلي للمؤسسة :

ـ الكلام ممنوع ، الحركة ممنوعة . إذا حاولت أن تزيل العصابة أو تخطف الرؤية من خلالها ، فستندم على أول يوم خرجت فيه إلى الوجود ! إذا أردت شيئا أطلب « الحـــاج » تجده بجانبك أربعـــا و عشرين ساعـة على أربـــع و عشرين . احفظ رقمك ، و إياك أن تضيعه !

و يبدو أنني ضيعته منذ البداية ، إذ حسبت أنه أعطاني رقم « 87 » . و لكن لكنته الغريبة وسرعته في الكلام جعلتاني أحتفظ برقم خاطئ كلفني في ما بعد ثمنا باهظا ..

رجعت إلى مكاني قريبا من باب الممر ، الذي ما فتئ يحدث صوتا مزعجا كلما دفعه أحد عند الدخول أو الخروج .و لم يكن اختيار ذلك المكان لي من باب الصدفة . بل كان إجلاسي هناك من أجل أن يتعرف الجميع على « الضيف الجديد » . يتعرفون عليه طبعا بطريقتهم! بات كل واحد يدلي بدلوه كلما وجدني في طريقه . هذا يرفسني برجله ، و هذا يقرع رأسي بأصابعه معقوفة ، و ذاك يأخدني من شعري و يهزني هزا ، و آخر يوقفني ثم يسقطني بجرة قدم . كانوا يتنافسون في الإساءة إلي و يتنادون من أجل ذلك :

« ـ أما رأيت السلعة الجديدة ؟

ـ تعال لتبصم على البضاعة ! »...

كنت فعلا مثل البضاعة الرخيصة التي لا تســـــاوي إلا الرفس و الاحتقار ! دام ذلك المسلسل الرهيب حتى وقت متأخر من الليل . انهارت

قواي من فرط الإهانـة والعذاب . و دخلت في نوم هو أشبه بالغيبوبـــة أو الإغماء منه لراحة النعاس .ثم جاء الصباح فصحوت و قد كنت أتمنى ألا أصحو .. بدأت الحركة تنمو شيئا فشيئا في المكان . كان النظام الداخلي يقتضي أن ينهض كل « مسحور » (هكذا كانوا يسموننا) و يجلس في مكانه حتى تمر عملية المراقبة . و يأتي الفطور الذي كان عبارة عن قليل من الحساء الخالي من كل طعم ، كأنك تأكل التراب . و لكنه كان أفضل من الجوع على كل حال . تناولت فطوري مستسلما لمقدوري ، و أنا أقول لنفسي :

ـ إن التشبث بالحياة شيء عظيم ! ما أهون أن تذعن لليأس في الظروف الصعبة ، فتميل إلى الإنتحار بكيفية مقصودة أو غير مقصودة ، لكن أن تصمد في وجه النكبات والآلام ، فذلك أمر لا يتاح لأي كان !

في ذلك اليوم الثاني من مقامي بمعتقل « درب مولاي الشريف » ، كان البرنامج خاليا إلا من زيارة الحلاق : أخذني « الحاج » من يدي و أدخلني على مكان يشبه موضع الغسيل ، حيث وجدت ذلك الرجل الذي أقعدني على كرسي صغير ، و أزال العصابة عن عيني بعد أن وجهني نحو الحائط . كان رجلا قصير القامة ، غليظ البنية ، يناهز الأربعين . أمسك آلة الحلاقـــــة و ثبتها على الصفر ، و بدأ يحصد شعري من الجذور قائلا لي (وكأنه يواسيني على فراق شيء ثمين) :

ـ لا فائدة في الشعر الكثيف هنا . فقد يكون سببا في إيذائك !

و تذكرت ليلة البارحة لما أخذ أحدهم يمسك بي من الشعر و يـــهزني بقـوة . و بدأ الحلاق يسألني بصوت خافت و يطل برأسه ليتأكد أن لا أحد يستمع إليه :

ـ ما اسمك ؟ من أي مدينة أنت ؟ أين قبض عليك ؟ أين كنت تدرس ؟

ما أن انتهى من أخذ هذه المعلومات حتى كان قد أتى على كل ما كنت أحمل فوق رأسي من وبر ! أعاد الخرقة على عيني ، ثم نادى على الحاج الذي تسلمني من جديد ، كخروف يعاد إلى الحظيرة بعد خضوعه لعملية الجز .

لعبة الطائرة

و لكم كان ارتياحي كبيرا عندما رأيت الحارس يدخلني إلى غرفة فسيحة ، و يجلسني على فراش متواضع . لم أعد بجوار الباب الكبير ! لم أعد عرضة للضرب والرفس والسب في كل لحظة . قلت لنفسي :

ـ الآن يمكنني أن أنام قليلا !

فقد نال مني التعب و الإرهاق كل منال . و بالفعل ، لم أستفق إلا على أصوات الصحون تقرع الأرض مؤذنة بموعد الغداء . وضعوا أمامي صحني ، و صب به « تشانكلى » (و هو اسم معار لأحد « المساحير » الذين حظوا برتبة موزع الوجبات) مغرفة من العدس الخالي من الملح كالعادة . لقد حرصوا على أن تغيب اللذة عن كل ما يقدمون من طعام !.. ومر ذلك اليوم بسلام ، دون أن يستفزني أحد . بل تسليت طوال النهار بأحاديث أطفال كانوا يلعبون بالقرب من نافذة غرفتي . لا شك أنهم أبناء بعض هؤلاء الزبانية الذين يبطشون و يعبثون بكرامة البشر في هذا الجحيم المتأجج .كان الأطفال يتحدثون ببراءتهم المعتادة ، غير متسائلين و لا متصورين لما يقترفه آباؤهم وراء هذه الجدران .. قضيت تلك العشية و قد غرقت في عالم الصغار ، يطيرون بخيالهم و يمرحون كالعصافير بين الحقول و المزارع ، بعيدا عن خبث الكبار و مكائدهم ...

في اليوم التالي ، و فيم كنت أترقب مجيء الصبية قرب نافدتي ، حوالي

الرابعة بعد الزوال (و كأنني نسيت أين أنا ، و ماذا ينتظرني) ، جاء الحاج و استنهضني بسرعة ، فقمت من مكاني مذعورا و أنا أتوقع الأسوأ .وصلنا إلى «الحي الإداري»، و أدخلني الحارس إلى غرفة هي أشبه ما تكون بمجزرة منه لشيء آخر. رأت عيناي قضبانا حديدية كثيرة ، و عصيا وحبالا ، فأيقنت أن الأمر يتعلق بوسائل التعذيب . أمروني أن أتمدد على بطني ، و كبلوا يدي ورجلي وراء ظهري بحبل غليظ ، ثم مرروا قضيبا كبيـــــرا بين أطرافي ، و رفعوني بواسطته إلى أن أصبحت معلقا في الهواء بين عمودين يصل بينهما القضيب . نفذوا كل هذا في هدوء تام ، دون أدنى تكلف ، كأن الأمر عادي تماما ! وانسحبوا إلى إحدى الزوايا ، و سمعتهم يرتشفون القهوة و قد اختلطت رائحتها برائحة السجائر ، و هم يتحدثون عن العقار و أنواع السيارات ! أما أنا فقد لزمت الصمت محاولا تحمل وضعيتي ، حتى أخذ الأمر يتعقد : بدأت أشعر بدبيب النمل في يدي ورجلي . لكن الأشد من ذلك هو الألم الذي بدأ يقطع منكبي . شيء لا يطاق ! أخذت أرسل التـــأوه و الأنين وأناشد الحاج (كلهم حجاج !) أن يخلصني مما أنا فيه ، دون جدوى ! ثم انطلق الصراخ متقطعا في البداية ، ومتواصلا في الأخير . عندها تقدم الأشخاص الثلاثة كأنهم كانوا ينتظرون هذه النتيجة :

ـ كفى من الصياح و أخرج ما عندك إذا أردت الخلاص .

أما العويل و التباكي فلا يجديان شيئا معنا .

هكذا قال العميد .

ـ ماذا سأقول يا سيدي ؟

ـ قل ما تعرفه عن أصدقائـــك الذين ذهبوا إلى الجزائر . قل ماذا تعرف عن « الولي » مثلا .

أجبته أنني لم أتعرف عليه قط ، بحيث كان قد غادر الجامعة في السنة التي

التحقت بها . و الحقيقة أنني لم أعرف شخص «الولي» كثيرا . فقد التقيت به لأول مرة في أكادير سنة 1972 . كان مصحوبا بأحد رفاقه المقربين ، و كانا قادمين من الرباط. عرضا علي أن أصحبهما إلى الفندق الذي يقيمان فيه .غير أني اعتذرت بالانشغال باستعدادي لخوض امتحان الباكالوريا . و ربما كانا ينويان أن يقترحا علي مصاحبتهما إلى « طنطان » حيث ستنطلق المظاهرة المشهورة ...

كانت مدينة « طنطان » معروفة إلى حدود ذلك التاريخ بموسمها الكبير الذي يعقد سنويا في بداية فصل الصيف . و كان الناس يؤمون إلى ذلك الملتقى التجاري من كل البقاع ، إذ اشتهرت المدينة بوفرة أنواع السلع الرخيصة المستوردة من « جزر الكناري »، و من داخل المغرب ، و حتى من بلدان أخرى : أنواع المذاييع والمسجلات والأغطية والسجائر والشاي و العطور وغيرها ... اختار « الولي » و رفاقه موعد الموسم لتنظيم مظاهرة يشهدها أكبر تجمهر ممكن ، لإثارة انتباه الرأي العام إلى ضرورة التحرك من أجل مواجهة الاستعمار الإسباني في الصحراء .

كانت قد مضت سنتان تقريبا على ارتكاب السلطات الفرنكوية مذبحة عرفت بمذبحة « الزملة » بتاريخ 17 يونيو 1970 . راح ضحية تلك الأحداث العشرات من المواطنين الصحراويين ، و على رأسهم متزعم تلك الانتفاضة بمدينة « العيون »، الشهيد « محمد سيد ابراهيم بصير» ... انطلقت مظاهرة طنطان إذن طبقا لما أراد لها «الولي» و رفاقه . ولقيت تجاوبا جماهيريا كبيرا . إلا أن ذلك لم يرق للسلطات المغربية . فواجهت المتظاهرين بعنف شديد ، و زجت بالعديد من الشباب في مخافر الشرطة . و لعل ردة فعل السلطات تلك ، إزاء تظاهرة سلمية ترفع شعارات عادية تدعو إلى طرد الاستعمار من الصحراء ، لعل ذلك هو

ما جعل الولي و أصحابه يقررون التوجه إلى الجزائر ...

كان لقائي الثاني بالولي في « الرباط » لما التحقت بكلية الطب في نهاية نفس السنة . كان ذلك في شقة رفيقه نفسه . ذكره هذا الأخير بتقابلنا في « أكادير» . فسلم علي بحرارة وهنأني بالنجاح قائلا :

ـ كنت قد غضبت منك إذ لم تصطحبنا إلى الفندق آنذاك ، غير أني أتجاوز عنك إذ نجحت بامتياز .

كان شابا نحيفا ، طويل القامة ، ودودا كثير الحيوية ، يغطي رأسه شعر كثيف ...

حرصت أن لا أبوح بشيء للعميد . فقد تعلمت من خلال تجربتي المتواضعة أنك كلما التزمت النفي في التحقيق ، كلما نجوت من كيد المستنطقين و مكرهم ، و هم يحاولـون دائما أن يوقعـوا بك في التناقـض . و لما رأى المسؤول أنني لا زلت أمتنع عن الكلام ، أعطى الأمر للجلاد بالتدخل . طفق ينزل على قدمي بسياط موجعة و يصرخ في وجهي بكلمات نابية ، و يضع في بعض الأحيان يده الضخمة على أنفي وفمي حتى أشعر بالاختناق . لم أعد أقوى على الصراخ ، و أحسست بنبضات قلبي ترتبك ، و كدت أن يغمى علي ...

وضعوني أرضا في الأخير ، و فكوا كبولي . لم أقدر على الوقوف من شدة الألم في رجلي وساقي . و الأدهى من ذلك أن ذراعي طفقا يرتعشان بشكل لا إرادي ، كطائر يحرك جناحيه ليطير فلا يطير . أخذ الحاج يطوف بي في الفناء و ينصحني ان أحث الخطى حتى يدور الـدم الراكد في عروقـي . و فعلا ، عادت الأمور إلى نصابها خلال ثلاث دورات أو أربع . و عـدت إلى غرفتي محبطـا ، محطم القوى ، و قد خلفت تجربة اليوم في نفسي أثرا عميقا وجرحا داميا . و لو كانت الأشياء توقفت عند ذلك الحد لهان الأمر ،

لكن العملية تكررت في الأيام اللاحقة عدة مرات ، جعلتني أبيت الليـــل و أظل النهار أتوجع من شدة الألم . و كنت في كل مرة أعود فيها من «لعبة الطائرة» المشؤومة ، أبدأ أعد الساعات في انتظار اللعبة القادمـــة . و بعد مرور ثلاثة أسابيع ، جاءني ذات صباح أحد الحجاج و قادني إلى المكان المعهود . وجدت العميد في استقبالي ، فتلقاني بصفعة قوية كدت أن أفقد معها توازني .

ـ أوشكت أن أصدقك يا ابن الحرام !

هكذا قال لي ، ثم استطرد يسأل :

ـ لماذا لم تحدثني عن مجموعتك ؟ ألا تعرف المختار ؟ ألا تعرف الحبيـب ؟ و أحمد ؟ و محمد؟

هممت أن أقول شيئا ، لكنه نهرني بصرخة قوية :

ـ أغرب من أمامي !

أعادني الحارس إلى الزنزانة ، و أنا حائر مهزوم ، لا أقوى حتى على التفكير. و بعد أيام ، نادوا علي من جديد .وقفت شطر الحائط في انتظار الأمـــــر. و سمعتهم يطلبون الأشخاص و يسألون كل واحد عن اسمه و نسبـــــــه و عنوانه ... و كانت تصـــل إلى مسمعي بعض العبارات :

ـ لقد اكتشفنا التنظيم ! نعم ، هؤلاء هم أعضاء المنظمة !..

و جاء دوري ، فدخلت أحد المكاتب حيث أخذ شرطي يسألني :

ـ ما اسمك ؟ ما اسم أبيك ؟ ما اسم أمك ؟ تاريخ و مكان ازديادك ؟ ...

لما انتهت عملية التسجيل هاته ، عادوا بي و قد اصطففت مع مجموعتي الجديدة . لم يلحقوني بالمجموعة تماما ، و لكنهم فكوا عزلتي نسبيا ، بحيث أصبحت أقطن في «حي المساحير» ، في ممر صغير يمتد أمام عدد من الزنازن . كان سريري في الطرف الأقصى من الممر .و عند

رجلي سرير سجين آخر . أما الزنازن فقد كانت مكتظة عن آخرها . كان همي أن أرهف السمع علني أتعرف على صوت أحد الأصدقاء . ولكن ذلك كان شبه مستحيل ، لأن الكلام لم يكن متاحا إلا في حدود المناداة على الحاج من أجل طلب الذهاب إلى المرحاض ، أو الاستئذان للجلوس أو الشرب ... أحسست بنوع من الارتياح عند إلحاقي بحي السجناء . على الأقل هنا أشعر أن أناسا يعيشون بجواري ويعانون مثلما أعاني . لكن هذه الوضعية لا تخلو من سلبيات . فالحراسة مشددة لمنع المساحير من التحدث إلى بعضهم البعض . و هنا تتم المراقبة كل صباح بالمناداة على كل واحد برقمه ، و هو ما وقع في اليوم الموالي لقدومي إلى الحي . وقف المسؤول المباشر بالقرب مني و صاح بصوته المثير :

ـ هيا اصحوا يا كلاب . سأبدأ المناداة بالأرقام !

كان كلما نطق برقم أجابه أحد السجناء : « حاضـر! » و نادى على رقم «37» ، ثم كرر نفس الرقم فلم يجبه أحد . ثم صاح بملء فيه :

ـ 37!.

و فجأة نزل علي بركلة موجعة أصابتني في الكتف .

ـ لماذا لا تجيب يا سافل ؟

قلت له إن رقمي «87». و انهال علي بلكمة على الصدر ، معلنا أنني لازلت أحتاج إلى المزيد من الترويض . و لعل الحراس التقطوا ذلك الإعـــلان و اعتبروه بمثابة أمر صريح . فقد صاروا يفتعلون الأسباب لمعاقبتي من حين لآخر . أذكر أن أحدهم جاءني مرة متظاهرا بمراقبة العصابة ، فإذا هي غير مشدودة بإحكام حسب ادعائه . اتهمني أنني تعمدت إرخاءها لكي أسترق الرؤية ، و تلك طبعا خطيئة لا تغتفر طبقا لنظام المؤسسة . جرني إلى سقيفة تربط بين ممرين ، و أمرني أن أقف على ساق واحدة . و طفق يذهب

ليلقي إطلالة على المساحير في الزنازن و يعود إلي ليلطمني بيده تارة على رأسي ، و بقدمه تارة على ظهري . و كان لا يسمح لي أن أبدل القدم التي أقف عليها إلا بموافقته . استمر الأمر بضع ساعات و أنا أتلقى الضربات و عبارات السب و الإحتقار . لم يعف عني ذلك الحارس الجبـــان إلا و أنا على حافة الانهيار .أعادني إلى مكاني و قد بدا مزهوا منتشيـا بما فعل ! أما أنا فقد ملأ الغيظ قلبي ، و بت أرسل إليه وابلا من اللعنات و السخط في صمت . و تمنيت لو أظفـــر به يوما فأذيقـــه أضعـــاف ما أذاقنـــي من ذل و شماتة . و لكن هيهات ! كيف أنتقم من شخص لم أعرف حتـى ملامح وجهه ؟ ومتى سأصبح حرا والدرب لم يزل أمامي طويلا ، و لم تمض بعد إلا أسابيع قليلة على دخولي هذا النفق المظلم ؟

لم يمر إلا يومان أو ثلاثة على ذلك الحدث البارز في ذاكرتي ، حتى بدأت أشعر بأوجاع شديدة في مفاصلي وفي رأسي . ثم بدأت الحمى تهزنـــــي و تصيبني بالرعشات والهذيان . و أخذ التهاب اللوزتين يظهر بما ينجم عنه من آلام في الحلق وصعوبة في الابتلاع . لم يكن من السهل إقناع الحراس من طرف السجين بمعاناته . فالسجين دائما يكذب و السجيـــن دائما يتحايل ، و السجين دائما يخادع بالنسبة لهم . لذلك تطلب الأمر أياما عديدة لكي أثبت أنني «جدي» في مرضي ، و لكي يأتي مسؤول «الحي» أخيرا ليؤكد صحة ما أدعيه . لم أعد أستطيع حتى ابتلاع ريقي ، فعزفت عن الطعام . و زارني ممرض إثر ذلك فناولني حقنة عضلية ...

الصاعقة

لم أتماثل للشفاء إلا بعد أيام عديدة . انهارت قواي تماما و وقفت على عتبة الهزال . و جاء العميد ذات يوم ، و قد عرفت قدومه بهبوب تلك الرائحة العطرة التي تسبقه إلى الأنوف ، و من خلال الصمت الذي خيم على الحراس فجأة . وقف بالقرب مني وسمعت أحدهم يحدثه همسا . و ترامت إلى مسمعي عبارة :

ـ أتتركونه هكذا حتى يموت ؟

لم أفهم شيئا من هذا الحدث ، و لم أدرك حقيقة هل كانوا يتحدثون عني أم عن أحد آخر . و في اليوم التالي ، جاءني الحارس بعد وجبة الغداء و أمرني بالوقوف . قمت من مكاني متسائلا عن الأمـــــــر ، و أخذت ألهث خلف الشرطي الذي كان يمشي بسرعة و هو يجرني من القيد . خرجنا من أحد الأبواب الخلفية و قد ألبسوني جلبابي الأحمر و وضعوا على وجهي قبعته بعدما خلصوني من العصابة . وجدت نفسي في مكان قليل الضوء يشبه المرآب ،و إذا بسيارة « سطافيت » تنتصب أمامي و قد فتح بابها الخلفـــــــي . أمروني أن أصعد إلى السيارة ففعلت . و لكم كان خوفي كبيرا لما رأيت رجلا يجلس أمامي و قد أمسك رشاشة صوبها نحوي بإمعـــــان ! و للمرة الثانية يخطر الإعدام ببالي ! و أي احتمال غيره يتصور في هذا المكان المظلم و مع هذا الصمت المريـب ؟ و زاد من رهبتي صوت

أحد السجناء وهو يئن و يتوجـع . و آخر رأيت قدميه تضمختا بلون أحمـــر و تخللتهما جراح مفتوحة !

انطلقت السيارة بعد دقائق دون أن يكون بإمكاني معرفة وجهتها هذه المرة ، إذ كانت المقصورة مظلمة و معزولة عن السائق تماما .. وصلنا بعد ساعتين من المسير . أنزلونا من «السطافيت» ، و إذا نحن في مكان جمع القمامة من مبنى ضخم الجدران . تبادر إلى ذهني أول ما تبادر أنه سجن كبير . قلت في نفسي :

ـ لا بأس بهذا . أرضى بكل شيء ، إلا الإعدام !

وجهونا نحو أحد الأبواب في أسفل العمارة ، و دخلنا إلى مصعد كبير. ضغط الشرطي الذي بقي معنا على زر الطابق الخامس ، بعد أن أزال الغطاء عن أعيننا !شيء لا يصدق أن يسمح لنا بالنظـر بعد كل هذا الحرمان . و لاحظت أن السجين الذي كان يرسل الأنين قد اختفى ، و لم يبق معي إلا ذلك الذي يتألم من قدميه و قد أثخنتهما جراح التعذيب (في لعبة الطائرة) . أخذ الشرطي يحدق إلينا و في نظرته شبه ابتسامة ، كأنه يدعونا إلى الكلام . قلت له في تودد :

ـ إنني أرى الضباب أمام عيني !

أجابني :

ـ إنه من أثر تلك الخرقة اللعينة ، و لكن سوف يزول مع المدة إن شاء اللّه .

لم أكن أتوقع أن يجيبني بهذه الطريقة المهذبة . و كيف أتوقع ذلك ولم أكن أسمع قبل ساعتين من أقرانه ـ و ربما منه هو نفسه ـ سوى كلام السب و الذم و الازدراء! لكنني تشجعت أكثر لما رأيته يلتفت إلى السجين الآخر و يسأله عن حال قدميه مبديا أسفه على ما أصابه . فبادرت إليه بالسؤال :

ـ هل نحن في سجن جديد ؟

ـ لا ، إنكم في المستشفى !

« أيصح هذا ؟ لا ، إنه يسخر مني ! هكذا هم البوليس دائما ، لا يعطونك الحقيقة أبدا ! » هكذا كنت أحاور نفسي .

وقفنا أخيرا عند الطابـــق الخامس . قادني الشرطـــي إلى غرفة صغيرة ، و وجـــه صاحبـي (الذي لم يكن سوى المناضل عبد الحميد الفكهاني ، أحد قادة حركة « إلى الأمام ») إلى الغرفة المقابلة . وكانت المفاجأة العظيمة : إنني فعلا في المستشفى ! و ليس أي مستشفى ، إنه «ابن سينا » ، المكان الذي كنت أتلقى فيه الدروس والتداريب و لم يكد يمر بعد شهران على ذلك (إذ كنا في الرابع و العشرين من أبـــريل) ! و تلك البطاقة المعلقة هناك ، على سرير الرجل النائم ، كتب عليها اسم الأستاذ الكبير « ابن يحيا » ! يا للصدفة ، هو نفس الأستاذ الذي كنت أتمرن في مصلحته قبل أن يلقى علي القبض ! و من كان يظن من الطلبـــــــــة و الموظفين أن الطابق الخامس «لابن سينا» امتداد لأحد السجون السرية الرهيبة ؟ تملكني شعور عميق بالحنين إلى تلك الحياة الجامعية الرائعة ، و تمنيت لو أعود فألبس البزة البيضاء و أهتم بتتبع أحوال المرضى تحت إشراف الأستاذ المقتدر «ابن يحيا» ! لكن هيهات هيهات !... و فيم أنا أفكر هكذا و ألعن هذا الجهاز الخفي الذي تسلط علي كشبح الظلام ، و رمى بي بعيدا عن حياة المتعة والنشاط ، فيم كنت أندب حظي ، دخل علي الشرطي صاحبنا و أخذ يسألني :

ـ هل عرفت الآن أين أنت ؟

ـ نعم ، أنا في مستشفى ابن سينا .

ـ و ما أدراك بهذا ؟

ـ لقد قرأت اسم الأستاذ « ابن يحيا » على تلك اللوحة .

ـ كيف عرفت هذا الطبيب ؟

ـ إنه أستاذي . فقد كنت أدرس في كلية الطب .

فهز رأسه مبديا نوعا من التأثر والإشفاق علي . ثم قال بعد تردد :

ـ لهذا السبب يجب علي أن أربط يدك مع السرير بواسطة القيـد . إنها الأوامر !

فعل ذلك وانصرف . « لا ضير ، (قلت في نفسي) ، مادامت عينـــاي طليقتين ، ومادمت في مستشفى ابن سينا ! هذا فضل كبير لمن كان ينتظر الإعدام ! ! »

بدأ الرجل هنالك يتحرك في سريره و قد بدا عليه التعب ، ثم فتح عينيه بصعوبة و أرسل إلي نظرة فاترة . أشرت إليه بيدي محييا ، و أشار إلي بأصبعه . و لما تمعنت في وجهه أخذني نوع من التوجس و الريبة . « ألا يكون هذا الجنرال أوفقير؟ و لكن الجنرال أوفقير مات حسب ما قيل ! و من يدري ؟ قد يكون هو . إنه يشبهه إلى حد بعيد ! إذن ، هل أكون أنا خطيرا إلى درجة أن تجمعني به غرفة واحدة ؟ » لقد تدوولت صور الجنرال كثيرا في السنوات الماضية في الصحف والمجلات ، خاصة بعد محاولته الانقلابية الأخيرة . لذلك تذكرته بمجرد أن رمق إلي هذا الشيخ بعينيه الصغيرتين . مرت أيام على مقامي الجديد . و كان الفرق شاسعـا بين الوضع هنـــا ، و بين ما يجـري في « الدرب » . لا مجال للمقارنة بين الأمريـــن . التغذية هنا مناسبـــة ، و السريـــر مريـــــح ، و الأغطية نظيفة ، و حتى معاملة الحراس حسنة إلى حد بعيد ! شبان يتعاقبون ، ويتنافسون في إبدائنا كل التقدير والاحترام . أحاديثهم ودية ، و أخلاقهم دمثة . و حتى ذلك الرجل الذي صاحبنا من هناك ، وهو رئيسهم ، كان رجلا طيبا للغايـــة ! و بدأ

الشيخ المريض يتعافى من بعد عملية ثقيلة على الجهـــاز الهضمي . إنه ليس الجنرال طبعا ، و لكنه ابن عمه ! كان يشغل منصب « قائد » بإحدى المقاطعات بمدينة « وجدة » . شيخ هادئ ، قليل الكلام ، لكن لسان حاله يحكي عن مأساة إنسانية عميقة .. حتى الحراس لم يكونوا يجرؤون على الحديث معه كثيرا ، رغم حسن سلوكهـم ، فهو « أخو » الجنرال كما يقولون !. بدت الأيام تمر بسرعة كالسحـــاب . و كنت أتمنى أن أقضي كل مدة سجني هناك ، مع أولئك الحراس ، و مع « مولاي أحمد أوفقير » .

زارني الطبيب مرتين أو ثلاثا . و كان يعبر لي ضمنيا عن تعاطف كبير ، خصوصا لما علم أنني كنت طالبا في الطب . نزلوا بي ذات يوم إلى الطابق الرابع حيث مصلحة أمراض القلب لإجراء التخطيط ، ثم نزلت إلى الطابق السفلي حيث مصلحة الفحص بالأشعة . و كان شرطي ببذلته الرسمية هو مرافقـي ، بينما كنت ألبس بذلة المرضى . جلسنا في أحد الممرات ننتظر دورنا للدخول إلى القاعة . و فجأة ، إذا بإحدى زميلاتي في الكلية تمر بالقرب مني ! كانت صدمتي قوية ، و كدت أن أصرخ لأنادي عليها . لكن الفتاة لم تلتفت إلى أحد و لم تنظر تجاهي حتى ، بل مضت في سبيلها غير لاوية على شيء ! قلت في نفسي :

ـ هل كانت ستعرفني حتى و لو رأتني ؟ ألم تتغير كل ملامحي بعد أن أصبحت جمجمتي قاعا صفصفا ، و أخذ الهزال مني مأخذه ؟ و حتى لو عرفتني ، ماذا عساها أن تفعل ؟ أو ليس الشرطي بالمرصاد ؟...

عمل الحراس مع مرور الوقت على تقوية جسور الثقة معي ، حتى أوشكوا أن يصبحوا أصدقاء حقيقيين . لذلك ارتأوا أن ينقلوني إلى غرفة أخرى ، حيث كان يوجد شاب من حركة « إلى الأمام » يدعى «ميلود» . هناك لم يعودوا يجدون حرجا في التحدث إلينا ، خاصة عندما ينزل الظلام

و يعسعس الليل ، و يخلو المكان من عيون المتربصين الماكرين ..أخذت أحاول أن أستدرجهم للحديث عن قضيـــة الصحـراء لأتعرف على آخر الأخبار ، دون أن أفصح عن اهتمامي بذلك الشأن . إلا أنهم كانوا يدركون حاجتي إلى معرفة ما يجري في العالم ، فعملوا على تزويدي بما يحدث من مستجدات . و في هذا السياق ، دخل علينا رئيس الفرقة ذات يـوم (ذلك الرجل الطيب الذي قادني من «الدرب») و قد بدا على وجهه نوع من الإرتباك والرغبة في البوح بشئ ما . و بعد أن تقصى المكان وأطل على جميع الغرف للتأكد من خلوها من أي عنصر خارجي ، عاد وأغلق الباب بإمعان ، ثم وجه السؤال إلى الحارسين :

ـ ألم تسمعا بالخبر الجديد ؟

فلما أجاباه بالنفي ، قال و هو ينظر إلي كأنه يريد أن يستشف مدى ردة فعلي :

ـ لقد قتل «الولي» زعيم «البوليساريو» !

نزل علي الخبر كالصاعقة . و اهتز قلبي حتى كاد أن يخرج من بين الضلـــوع . لكنني تمالكت نفسي مخافة أن يصدر مني ما يوحـي بالإهتمام أو التأثر . و بـادرت بإلقاء الســـــؤال :

ـ متى و أين كان هذا ؟

ـ بالأمس ، في نواكشوط بموريتانيا .

ماذا عساي أن أقول . و ماذا عساي أن أفعل ؟ كنت إلى حدود سماع الخبر أشعر براحة و اطمئنان كبيرين . بل نسيت ما ينتظرني في ذلك الجحيم المسمى بالدرب ، و قد قضيت هنا أزيد من شهر في هذا الجو الرائع (كنا في الأسبوع الثاني من شهر يونيـــو) .لكن هذا النبـــأ المفجع أضاع علي كل شيء . شعرت بإحباط شديـــد ، و كدت أن أصـــــــرخ :

«مستحيل ! !.» و مثلت أمامي صورة الولي و هو يبتسم و ينظر إلى الأفق البعيد ، فاغرورقت عيناي قليلا ، وبكيت من قلبي كثيرا على ذلك الشاب الشجاع الطموح ، الذي لم يكن له من ذنب سوى أنه تعلم و وعى ، و كان ذا ذكاء زائد ، و إخلاص زائد ، و حماسة زائدة عن المألوف ! إنه مؤسف حقا أن يموت شاب من هذا الطراز ، و بهذه السرعة !.. تأججت الأشجان في صدري حتى أوشك على الانفجار. مـــا أصعب أن يحمل قلبك أطنانا من الحزن والأسى ، و أنت لا تستطيع أن تبوح بها لمن حواليك ، فتبقى مكبوتة حبيسة الجوانح والفؤاد !.. و فيم أنا أتخبط في أفكاري المبعثرة سمعت الشرطي يقول :

ـ هل تعرفه يا «سي عبد الرحمان؟»

ـ لا ليس كثيرا ، و لكنني سمعت عنه الكثير .

و باتوا يتحدثون في الموضوع و يبدون آراءهم و توقعاتهم فيه :

ـ إنه انتصار للمغرب .

ـ لقد انتهت القضية .

ـ قطع رأس الحية !

ـ إنها هزيمة للجزائر !

و ذهب أحدهم إلى القول بأن السجناء سيصبحون طلقاء بعد أيام ، و هو يحدق إلي بنظرة مجاملة . قلت له :

ـ ممكن ،

و أنا أعاتب نفسي : « أيسعدك أن يكون مقتل الولي فرصة لخروجك من السجن ؟ لا ، لا ، لا سمح اللّه بذلك !..»

العودة إلى جهنم

مرت بضعة أيام دون أن يتغير الحديث كثيرا ، و قد بدأت أمل من سماع آرائهم و تكهناتهم في الموضوع ... و جاء يوم العودة إلى الدرب ، ذلك اليوم الحزين ! ما أتعس أن تساق مكرها إلى مكان لا تحبه و لا تحب من فيه !ظلام في ظلام ، حيث لا فرق بين الليل و النهار ، و لا وجود لشيء يريح الخاطر : لا مأكل و لا مشرب ، و لا لباس و لا غطاء . ما أقسى أن تعود إلى هذا الجحيم و أنت تحمل خبرا قاتلا كنبإ وفاة إنسان تكن له احتراما غير محدود ، بل كان بمثابة النجم المتوهج في سمائك ! و زاد من كآبتي توديع أولئك الأشخاص الذين كانوا يحرسونني ، و ذلك الشاب السجين الذي تقاسمت معه أوقاتا حميمية نسجنا خلالها علاقة ود و وئام ..

عدت على كل حـــال إلى الدرب ، و كان علي أن أتقبل واقعي الجديد ! و لكنني لاحظت تغيرا نسبيا في المعاملة وظروف العيش . فقد خفت حدة القمـع ، و تراجعت شدة الحراسة عما كانت عليه . لم تعد المناداة بالأرقام كل صباح و ما كان يصحبها من ضرب وشتم . و لم تعد المعاقبة لأتفه الأسباب . وشعرت أن ذلك المسؤول صاحب اللكنة الغريبة لم يعد يعاملني بنفس القساوة ، و إنما بات يتقرب مني شيئا فشيئا . فقد وقف بجانبي مرة وسألني عن حالتي الصحية .

ـ لقد عانيت كثيرا يا سي «نعينيعة». (هكذا أصبحوا يسمونني بعد عودتي

من المستشفى) .

واستطرد يقول :

ـ سوف يكون الفرج قريبا إن شاء اللّه . فقد ذهب زملاؤك كلهم .

و لما سألته هل أطلق سراحهم ، أجابني : «ربما !» ..

في تلك الأيام جيء بسجين جديد ، و أدخل بجانبي في زنزانة صغيرة . واستطعنا أن نتعارف رغم صعوبة الموقف . فإذا به طالب يدعى « إدريس » ، كان يدرس بفرنسا ، ألقي عليه القبض في المطار لدى عودته إلى الرباط ، وذلك في إطار حملة اعتقالات طالت الكثير من مناضلي حركة « إلى الأمام » . و عرفت أنه كان قبل ذلك يدرس «بمدارس محمد الخامس» ، ويعرف أغلب الطلبة الصحراويين الذين كانوا يزاولون دراستهم هناك . وعلمت عن طريقه بتفاصيل العملية التي توفي فيها الشهيد ...

توالت الأيام بطيئة كئيبة ، و أنا أحاول أن أتعود على وضعي الجديد . و لا أنكر أنه لولا ذلك الخبر التعس ، لكنت أسعد بكثير مما كنت عليه في المرحلة الأولى . فقد تغيرت الظروف بالدرب بصورة إيجابية . حتى أنني أصبحت أتعامل مع العصابة بطريقة سلسة . إن العصابة كانت تشكل في ذلك المعتقل الممقوت ، أكبر عناصر الضغط النفسي على السجين . فهذا النوع من السجون لا يسلب الإنسان حريته فقط، بل يسلبه النظر ، و يسلبه الحركة ، و يسلبه الكلام ، وحتى التفكير و الخلو إلى النفس ! إلا أن سلب النظر أمر فظيع فظيع !

بمجرد أن أصبحت أرى بصيصا من خلال الخرقة المشؤومة ، بدأت أحس بنوع من الإطمئنان . و أصبحت أرى صور أولئك الذين لم أكن أفرق بينهم إلا بواسطة أصواتهم . و بدأت أقرن الصوت بالصورة و أسجل لكل شخص ما كان يصدر عنه تجاهي من تصرفات . و بما أن الوضع تغير ، فقد

أخذ العديد من الحراس يتأقلمون مع الأحداث ويتقربـــون إلى السجناء . حتى ذلك العنصر الشرير الذي مارس علي كل ما عرف من أساليب القهر و الإهانة في تلك الليلة المشهودة ، بات الآن يتودد إلي بشكل مبالغ فيه ، كأن يده لم تمتد يوما لأحد ، و كأن لسانه لم ينطق أبدا بسوء !

تعاقبت في الأسابيع الموالية دفعات من الشباب المعتقلين ، خاصة من حركة « إلى الأمام » . إلا أن إجراءات نقلهـــم إلى السجون الرسمية كانت تتخذ بوتيرة سريعة ، من أجل تقديمهم إلى المحاكمة . و حلت في تلك الأيام مجموعة صغيـــرة من الصحراويين تعرفت على أحدهم . إنه «البشير» ، الذي أصبح «يسكن» بالقرب مني ، و الذي توطدت علاقتي به كثيرا في تلك الظروف الصعبة . و استطعنا أن نكسر حاجز الصمت المفروض علينـا ، و أن نتحدث في ما بيننا من حين لآخر كلما سنحت الفرصـة . و كان البشير يمدني بين الفينة والأخرى بسيجارة مصحوبة بعود ثقاب ، كانت تمثل بالنسبـــة إلي هديـة لا تقدر بثمـن ، و عملا وديا لا ينسى ! كان التدخين ممنوعا على السجناء . إلا أن إدارة المعتقل سمحت لتلك المجموعة من الصحراويين بذلك المكسب . و كانوا يزودونهـم بالدخان باستمـرار ، و بصورة استثنائية . أما أنا فقد كنت مقصيا طبعا من هذا الإمتياز . لذلك كان يجب علي أن أقوم بالعملية في سرية تامة ...

و جاء يوم الفراق ! فقد نودي على البشير ورفاقـــــــــه ذات صباح ، فذهبوا دون أن أعرف إلى أية وجهة . «لعلهم قدموا إلى المحاكمة مع الأفواج الأخرى ؟!» هكذا كنت أتساءل . و رجعت إلى وحدتي من جديد ، و أصبت بحزن عميق بعد مغادرة البشير ، الذي استأنست بوجوده ، و ألفت أحاديثه الرقيقة ... أصبح السجن شبه خال في الأيام الموالية . و لم يبق هناك إلا عناصر قليلة وصفت «بالحالات الفردية». لذلك جمعونا في «الحي

الإداري» . و جيء في إحدى الأماسي بشاب فرنسي الجنسية . يبدو أنه وقع في فخ لم يكن يخطر له على بال . و لعله كان يرجح في بعض الأحيان أن الأمر لا يتعلق إلا بكابوس ، أو «بكاميرا خفية»! فقد كان يصيح بكل قواه : ـ أزيلوا هـذا الحديد عن معصمي ، أزيلوا الخرقة عن عينـي ! ما هذه الحماقة ؟

و بدا واضحا أن المسؤولين أعطوا تعليمات استثنائية بخصوص التعامل معه . فقد سمحوا لـــه بهامش من الحريــة لم يكن يحق لغيـــره . على الأقل ، هو كان يستطيع أن يعبر عن تذمره ويصيح كيف يشاء ! لقد شفعت له جنسيته الفرنسية ! أكثر من ذلك : كان كلما صعد غيظه إلى سقف معيــن ، أبلغ الحراس العميد بالخبر ، فاستدعاه الأخير إلى مكتبه وناوله سيجارة ، وتحدث إليه بضع دقائق ليطمئنه ويهدئ من روعه .. تعرفت على الشاب شيئا فشيئا ، إذ كان مرقده بجوار مرقدي. تعرفت عليه من خلال إجاباته عن بعض تساؤلات الحراس ، الذين كان يدفعهم الفضول إلى الدخول معه في أحاديث متنوعة بغية فك لغز تواجده في الـــــــدرب . و كنت أدخل معهم على الخط أحيانا كمترجم ، مستغلا ضعفهم في التواصل باللغة الفرنسية . و هكذا علمت أنه كان طالبا في كلية العلوم «بباريس». وفهمت أنه من أم جزائرية الأصل . كان اسمـه الشخصي «نورالدين». ولربما كان اسمـــــه و خؤولته سببا في سقوطه فـي المصيدة ! و مع مـــــرور الأيام ،أخذ «نورالديــن» (أو «إديــن» كما يلقبه أبواه) يتعـود على وضعـــــه الجديد ، ويحاول تناسي معاناته بتجاذبه الحديث معنا في مواضيع متنوعة . بل استطاع أن يتكيف خلال أيام مع وجود القمل الذي أثار فزعه لما اكتشفه لأول مرة . فقد ثارت ثائرته لما ألقى القبض على أول قملة يعثر عليها في حياته . و طبعا ، وجد صعوبة

كبيرة في استساغة التعايش مع ذلك الكائن القذر ، الذي لا يروق له العيش إلا حيثما كان البؤس والشقاء ! كما أنه لم يكتسب المهارة اللازمة لمحاربة القمل ، إلا بعد مرور مدة غير يسيرة . فقد كانت القملة تنزلق بين ظفريه قبل أن يتمرن على طريقة الإجهاز عليها .

و هكذا استفاد أن كل عمل مهما كان ، يحتاج إلى ممارسة وتدرب ، حتى قنص القمل !..

و صراحة ، فقد أدخل علي وجود «إدين» طمأنينة خاصة ، وعوض لي نسبيا ما كنت أشعر به من كدر وحرمان ، بحيث كنت و إياه نستغل انشغال الحراس من حين لآخر ، لنأخذ في اختلاس بعض اللحظات الودية ...

و شاءت الصدفة أن تكون مغادرتنا للدرب في نفس اليوم ، بل في نفس الساعة ! لازلت أذكر ذلك الصباح الذي جاء فيه قائد الحراس وأمرنا بالقيـــــام ، بنبرة توحي بالفرح والتفاؤل . وقفنا أمام مكتب القائد في انتظار أن يشير إلينا بالدخول ، وقد وجهونا شطر الحائط كعادتهم. كانت الفرحة تملأ قلبه ، أما أنا ، فلم تكن فرحتي مكتملة ، إذ كنت أستبعد أن يفرج عني للتو ، لكني كنت متفائلا على كل حال . سمعت نورالدين يهمس في أذني وهو يكاد يرقص من الفرح :

ـ لا شك أن هذا يوم عظيم ، أليس كذلك ؟

قلت له :

ـ نعم ، بلا شك !

ـ إياك أن تنسى الاتصـــال بي فور رجوعك إلى أهلك ! أما زلت تذكر عنواني ؟

ـ بلى !

و لما جرني الحارس إلى مكتب الرئيس ، سمعت «إدين» يقول :

ـ وداعا يا عبد الرحمان !

استقبلني الرجل صاحب اللكنة الصعبة بحفاوة ظاهرة ، على عكس ما كان في أول أيام مقامي بالدرب ، أي منذ ثمانية أشهر (نحن في الخامس والعشرين من شهر نونبر) .

ـ ها أنت ستغادرنا يا «نعينيعة» .

هكذا خاطبني . ثم بادرته بالسؤال :

ـ هل سأصبح حرا يا شاف ؟

أجابني بتردد ظاهر ، كأنني فاجأته بالأمر :

ـ نعم ، سـ .. ستلتحق بزملائك في مكان ما .. و .. بعد ذلك سيفرج عنكم إن شاء اللّه ! البس ثيابك الحقيقية و ارم عنك هذه .

أخذت ملابسي و ارتديتها بسرعة ، و قد وجدت في ذلك ارتياحا كبيرا . فقد كانت بذلة الدرب رمزا للشؤم والحقار بالنسبة لي . إلا أن جواب الضابط عن سؤالي الساذج بدأ يثير في نفسي شعورا متزايدا بالضيق والقلـق . ليس من طبعـي أن أتشاءم ، ولكن كلام الرجـل كان ملفوفا بالغموض الكثيـر . و عدت أطمئن نفسي و أقول :

ـ على كل حال ، فالخروج من الدرب و ملاقاة الإخوة خلاص في حد ذاته !

أخذ الحارس بيدي بعد أن لم يبق من بقايا الدرب إلا العصابة ، و سرت أرافقه خطوة بخطوة ، حتى صعدت إلى السيارة الواقفة في الساحة .

رحم الله «الدرب» ما أجمله

نزع الشرطي الخرقة عن عيني ، فإذا بي أجد نفسي بجانب زميلين فعلا ، أحدهما يدعى «محمدا». و قد كان من أصدقائي المقربين في الجامعة ، و الآخر أيضا اسمه «محمد»، لكنني لم أكن أعرفه من ذي قبـــــل . تصافحت مع الصديقين وجلسنا في مؤخرة «السطافيت»، وبجانبنا شرطيان يرمقان إلينا بتودد ، و نحن نتبادل السلام و الكلام .

ما أجمل أن يرى الإنسان النور بعد طول ظلام ! ما أروع أن يشاهد الحياة بعد أن بات مخبأ عنها شهورا تقاس بالأعوام ! كنت أشعر فعلا أنني أصبحت «نصف حر» بعد أن تركت الدرب و ظلمته و وحشته و ركود الحياة فيه . الآن أتحرك في سيارة تشق شوارع «الدار البيضاء»، و أرى النـــــاس و البنايات ، و أسمع أصوات الحياة ، و أتحدث بحرية إلى صديقين يقاسمانني نفس الشعور و المصير! كان الجو رائعا ، و الشمس ساطعة . خرجنا من الدار البيضاء، و مضت بنا العربة في اتجاه الجنوب . و كان ذلك التوجه كافيا لكي نبدأ في نسج أوهام من خيالنا ، مفرطين في التفاؤل :

ألم نكن نقترب من الديار؟ ألسنا في الاتجاه الصحيح ؟ ها نحن في الطريق إلى مراكش ، و بعدها إلى أكادير ، ثم إلى هناك .. حيث الأهل والأصحاب ينتظرون! كنت أتحدث إلى الصديقين ، و أحدق من حين لآخر نحو المناظر الطبيعية عبر الزجاج الخلفي . و كان الزميلان يشاطرانني نفس الشعور

بأننا نعيش يوما تاريخيا له نكهة لا تقاس بشيء ! و كان الشرطيان بين الفينة والأخرى ، يوجهان إلينا كلمات مازحة مقتضبة ، ثم يعودان إلى حديثهما كأنهما لا يريدان حرماننا من التمتع بتلك اللحظات السعيدة ...

و بعد حوالي ثلاث ساعات ، دخلنا إلى مدينة مراكش . مدينة جميلة ، كثيرة الحركة . و زادها رونقا أننا صادفنا ساعة الزوال ، وقت عودة العمال و الموظفين، و التلاميذ و التلميذات ! كانت الفتيات أغلبهن يرتدين بزات المدرسة . بعضهن يمشين راجلات ، و أخريات يمتطين الدراجات الهوائية . كان لمرورهن غاديات كقطعان الغزلان ، أثر عميق على نفوسنا المتعطشة المحرومة . فراح بعضنا يبني قصورا من الخيال ، و يسرح في دنى السحر و الفتنة والجمال ... و قفنا أمام أحد المطاعم ، و نزل الشرطيون الأربعة ليتناولوا الغداء . نحن لا يحق لنا الهبوط طبعا، و لكننا كنا سعداء بالبقاء داخل سجننا المتحرك ، و التفرج على الشارع من خلال النوافذ . كان وجود سيارة الأمن بهذا المكان يثير فضول بعض الأشخاص من المارة . فكان أحدهم يقف على مسافة قريبة يستطلع الأمر. بل كان منهم من يجرؤ على الاحتكاك بالسيارة عن كثب ، و الاشرئباب بالعنق علـه يـــــرى ملامحنا . و كنا بدورنا نحاول أن نثير الانتباه دون الإفراط في المغامرة ، حتى لا نجر علينا حنق الحراس ... مرت الأمور بسلام ، و عاد الرجال الأربعة و قد جلبوا لنا « سندوتشـــات » التقمناها بشراهة الجيـــاع !.. استأنفنا المسير ، لكن الوجهة التي اتخذها السائق جعلتنا نشعر بالحيرة و الإندهاش! لم نسلك طريق أكادير كما كنا نحلم ، و إنما أخذنـا اتجـاه « ورززات » !! لماذا ورززات ؟ ؟ و سرعان ما تهدمت القصور ، وراحت الغزلان الشـوارد في الفيافي ، تسابق السراب الهارب! ! نحن إذن ذاهبون إلى سجن آخـــــــر ؟ و تذكرت ما قاله لي الضابط في الدرب لما سألته إن كنت سأصبح حرا !..

و بالفعل وصلنا إلى تلك المدينة قبيل الغروب . توقفت بنا السيارة داخل مفوضية الشرطة ، حيث كان العميد في استقبالنا مع بعض معاونيه . أدخلونا للتو في زنزانة خالية من كل شيء، بعدما سجلوا أسماءنا و تأكدوا من هوياتنا .. وجاء الظلام ، و نزل البرد القارس ، و نحن نفتـــرش الأرض و نلتحف جدران الغرفة ! كيف يمكن أن نرى النوم في وضع كهذا؟..

ولما حل الصباح ، كنا جميعا في حالة قصوى من الوهن والانهيار . نادينا على الحارس ، و حاولنا أن نستعطفه و نشكو إليه أمرنا . لكنه اعتذر عن عجزه التام ، و اقترح علينا أن نطلب المسؤول لعرض حالنا عليه ، عله يفعل شيئا . و بالفعل جاء العميد يمشي الهوينا . وقف أمامنـا دون أن يلقي السلام . رجل بين الطويل والقصير ، قوي البنية ، صارم النظرة ، يلامس الأربعين ، يميل إلى السمرة ، ويعلو شاربه شنب كثيف شديد السواد . حكينا عليه مصابنا ، معبرين عن تضررنا من شدة البرد والجوع . فأجابنا أنه لا يملك حلا لهذا ، معربا عن أمله أن لا يطول مقامنا عنده :

ـ فأنتم لستم في فندق حتى يكون لكم غطاء و فراش ، و لا في مطعم حتى تجدوا غذاء ، و إنما أنتم في مفوضية . كل ما يوجد تحت نفوذي مقصف صغير يمكنني أن أقتني لكم منه سجائر وشيئا من الشاي . و على كل حال ، فأنتم عابرون فقط !

هكذا خاطبنا الرجل ، ثم عاد أدراجه يمشي بخطى وئيدة . و بالفعل ، قضينا ذلك اليوم نحتسي كؤوس الشاي من حين لآخر ، وندخن سجائر «الأولمبيك» لمن أراد أن يدخن . و من حسن حظنا أن القائم على شؤون المقصف كان أحد المجندين الصحراويين في سلك الشرطة . وقد أبان لنا عن تعاطف كبير . فكان « يختلس » بعض أنواع « البسكوت » و يجلبها لنا مع الشاي والدخان . و كان هناك عنصران صحراويان آخران يعملان

بالمفوضية . أحدهما تحمس كثيرا لرؤيتنا ، وسلم علينا بحرارة . و عاود المجيء إلينا عدة مرات حاملا بعض المأكولات خلسة . أما الآخر فلم يقترب من زنزانتنـــا ، و لم يجرؤ حتى على السلام . كانت المفوضية خالية من المحبوسين غيرنـــا ، إلا رجلا واحدا . ملامحه صحراوية بلا شك. نحيل الجسم ، طويل القامة ، أسمر اللون . كان يمشي مسرعا جيئة وذهابا في الممر الرابط بين الزنازن ، ويتكلم باللهجة الحسانية كأنه يخاطب شخصا آخر . سأله أحدنا لما مر بالقرب منا :

ـ ما اسمك ؟

فأجاب بتلقائية دون أن يلتفت إلى مصدر السؤال :

ـ أنا الطوفان !

حاولنا أن نلفت انتباهه إلينا حتى نتعرف عليه ، لكن الرجل كان في عالم آخر! وجاء ذلك «المجند» الذي لم يكلف نفسه حتى السلام علينا ، فأمره بالدخول إلى زنزانته . غير أن « الطوفان » لم يأبه بوجوده ، إذ كان غارقا في حديثه مع « النجوم » . عندها ثارت ثائرة الشرطي المتغطرس ، فانهال على الرجل المسكين باللكمات حتى أسقطه أرضا ، ثم طفق يسدد له الركلات تلو الأخرى حتى أشبع وحشيته المقيتة ، ثم سحله إلى داخل الغرفة و أغلق الباب . كنا نتفرس في ذلك المشهد المأساوي و نتعجب : « أي قلب هذا الذي يسمح لصاحبه أن يعتدي على إنسان كهذا ، غريب الأوطان ، ضعيف البنيان ، فاقد العقل و الوجدان !. »

و تذكرت ذلك الشاب «الهندي» الذي كان يتعذب في زنزانته في الربـــاط ، و يصرخ متوسلا إلى الشرطي بنبرة تدمي الفؤاد ، فلا يجد منه إلا الصفع على الوجه والكلام البذيء .. أي نوع من البشر هؤلاء الذين يتلذذون بالدوس على المغلوبين الضعفاء ؟...

مر اليوم الثاني والثالث ، و نحن لم نزل نراوح زنزانتنا الخالية ، حتى بدأ الشك يتسرب إلى نفوسنا من جديد . و كان الليل أصعب الأوقات علينا ، إذ كان الزمن خريفا ، وكان البرد شديدا .و اضطررت إلى أن أقتسم مع رفيقي وقت الاستفادة من جلبابي الأحمر . فجعلناه كل ليلة من نصيب أحدنا . حاولنا أن نستدرج الحراس إلى البوح لنا بسبب المكوث بورززات ، و حتى بالوجهة التي تنتظرنا ، لكنهم كانوا يؤكدون عدم درايتهم بأي شيء في الموضوع . وفي اليوم الخامس ، وفيم كنا نصطلي تحت أشعة الشمس ، في ساحة المخفر ، علنا نختزن شيئا من الدفء نقاوم به برد الليل ، وقفت سيارة «لندروفير» بيضاء بالقرب منا . نزل منها رجلان يلبسان لباسا مدنيا عاديا ، و التحق بهما اثنان من الحراس ، فبدأوا يتهامسون و يسرقون النظر إلينا . فهمنا أن الأمر يهمنا ، و بدأت القلوب تخفق عند الحناجر ، استعدادا لسفر جديد ، و لمرحلة جديدة من المسلسل الطويل ..

و بالفعل ، جاءنا الحارسان و قد بدا عليهما التوتر، فأخبرانا أننا سنرحل . و قدم صاحب المقصف ليودعنا هو أيضا ، و كان متأثرا أكثـــــر من الآخرين . صعدنا إلى السيارة بعد أن تبادلنا السلام مع الحراس وشكرناهم على حسن الضيافة . و الحقيقة أنهم كانوا طيبين معنا بما استطاعوا . وما أن أغلقت أبواب السيارة علينا، حتى تبدلت الأمور ، وانقلبت الأحوال في رمشة عين! استقبلنا الرجلان بغلظة وقساوة شديدتين ، وطفقا يربطان يد كل واحد منا بقيد الحديد ، ويشدانها إلى عارضة في سقف السيارة ، و يطبقان على أعيننا العصابات بكل قوة . و انطلقت السيارة في رحلة ما رأينا قبل ذلك أشد منها إيلاما وترويعا . أخذت أشعر كأن منشارا يقطع منكبي الأيمن وذراعـي المشدود إلى أعلى السيارة . وأحسست أن عيني ستنفجران من فرط ضغط العصابة . وكانت الآلام تشتد كلما امتدت

الطريق ، وخاصة عندما تنعرج العربة أو تهتز في إحدى الحفر . و ما أكثر الحفر و المنعرجات في طريقنا !. لا أدري كم مكثنا خلال ذلك السفر المهين . لكنه كان مضنيا بشكل لا يطاق ..

و فيم أخذت أشعر بالانهيار الوشيك ، وأنني أصبحت على عتبة الإغماء ، و قد بدأ قلبي يدق و أنفاسي تختنق ، تقلصت سرعة السيارة فجـــأة ، ثم توقفت بعد بضع دقائق . سمعت صوت باب كبير يفتح على مصراعيـــه ، فمرت العربة بصعوبـــة كأنها تخترق نفقا لا يتسع لحجمـها . و بعد لحظات قليلة ، أوقفوا السيارة تماما ، و أسكتوا المحرك ، و بقينا ننتظر في ظلمة موحشة و صمت رهيب كمن ينتظر الموت المحقق . فتحوا باب السيارة الخلفي أخيرا و بدأوا يفكون رباطنا وينزلوننا بعنف مقصود . بعد ذلك اقتادونا إلى مكان قريب ، ونزعوا عنا العصابات ، فإذا نحن وسط فرقة من «المخازنية» يحملون هراوات غليظة ، يتقدمهم رجل قصير القامة ، أبيض اللون ، يلبس بذلة مدنية سوداء ، يشكل بهيئته الأنيقة تناقضا صارخا وساخرا مع مظهر جنوده بثيابهم الباهتة ، ووجوههم المغبرة ، كأنهم عصابة من القراصنة أو قطاع الطرق .. لم يكن ذلك الرجل سوى القائد الإداري للبلدة التي ستحتضن المرحلة الجديدة من مسلسل البـؤس و الشقاء ...

فتشونا تفتيشا دقيقا لا يخلو من استفزاز ، بعدما تأكدوا من هوياتنا ، ثم فتحوا بابا خشبيا يؤدي إلى داخل البناية . وجدنا أنفسنا في ساحة تتوسط منزلا ضاربا في القدم ، عالية جدرانه الطينية . كل شيء فيه يوحي بالتآكل والنسيان .. أبواب كثيرة موصدة ، وثياب مرقعة ملقاة على الأرض ، وصمت موحش كصمت المقابر . ساقنا ثلاثة من الحراس إلى إحدى زوايا البناية ، حيث فتحوا بابا صغيرا ، وأغلقوه خلفنا دون كلام

، ثم انصرفوا . أخذنا نتلمس أعضاءنا المنهكة من عناء رحلة الموت ، و نتمعن في غرفتنا الجديدة بانبهار شديد . غرفة ضيقة ، جدرانها مطلية بسواد قديم ، مما يوحي أنها كانت تستغل كمطبخ ، أو بالأحرى كمحرقة في يوم من الأيام . سقفها صنع من قصب وخشب ، و قد تكسرت بعض أخشـــابه و آلت إلى السقوط . وبينما نحن نتأمل هذا الديكور الغريب ، سمعنا أصواتا نسائية فاترة تتخلل السكون من حين لآخر . هرعنا نحو الباب وأخذنا نرهف السمع ونبحث عن شقوق علنا نبصر من خلالها ما يدور في الساحة . وبالفعل رأينا نساء هزيلات ، بل هن أشباح نساء فقط ، حالهن يثير الرأفة والرثاء ، ولباسهن كأنما مرت عليه السنون .. كن يتنادين في ما بينهن في تحاور هادف موجه إلينا ، كأنهن يقلن لنا : « هذه مباركة ، و تلك الغالية ، ودماحة و المامية »...

تعرف عليهن صديقاي (إذ كانوا جميعهم تقريبا من مدينة طنطان) .

مرت إحداهن بالقرب من بابنا وقالت :

ـ مرحبا بالقادمين !

وتلتها أخرى :

ـ ألا تعرفوننا بأسمائكم ؟

وجاءت ثالثة بالنبإ العظيم :

ـ احذروا ، سيعذبونكم كثيرا ، و لكن لا بأس . تلكم مرحلة مررنا منها جميعا ، غير أن ذلك لم ينل من عزمنا ولا من إرادتنا . هنا لا شيء ينفع إلا الصمود !

هكذا إذن سنخضع للتعذيب من جديد ؟ ألم يكف ما تحملناه في الدرب من أصناف الويل والإذلال ؟ ألم ينته البحث بعد ؟ ..

و بعد حوالي نصف ساعة ، عادت النساء إلى غرفتهن . و رأينا الحراس

يفتحون أبوابا عديدة لتخرج منها دفعات من الرجال من مختلف الأعمار . هذه الساحة التي كانت خالية مقفرة ، أصبحت تعج بالحركة والنشاط ! لكن صدمتنا كانت كبيرة : العشرات من الرجال يغدون ويروحون في هذا المكان المسدود ، و لا يكادون يتكلمون إلا همسا . رؤوسهم منحنية كالسنابل المثقلة ، وثيابهم رثة مرقعة، وكل الذين تعرفنا عليهم قد تغيرت ملامحهم من فرط الهزال ! وكان منهم من عجز عن المشي فأخذ يزحف على أربع !

تقدم أحد الشبان واقترب من الباب قائلا :

ـ مرحبا بكم !

و انصرف مسرعا . ومر آخر وقال :

ـ نحن هنا منذ شهر يوليوز . عددنا مائة وعشرون . توفي منا أربعة عشر إلى حد الساعة .

ماذا يقول هذا؟ أربعة عشر فردا توفوا خلال أربعة أشهر ؟! لقد كان هذا الرقم كافيا لأن يعطينا صورة واضحة عن فظاعة الموقف وعما ينتظرنا من مفاجآت !.. وجاء دور الرجال ليدخلوا في هدوء إلى مساكنهم ، خوفا من جنود يشبهون جنود سليمان ...

و ما أن سمعنا الأبواب تغلق تباعا حتى اندفعنا بسرعة لننكمش في أبعد ركنة من الزنزانة السوداء . فقد شعرنا أن الوقت قد حان ليأتي دورنا . فتح بابنا بقوة ، ودخل علينا أحد الحراس وقد حمل هراوته الغليظة ، وبقي آخر عند المدخل يمسك بيده نفس السلاح . أشارا إلينا أن نأخذ الطعام ، ثم أغلقا الباب وتركانا نتناول أول وجبة غداء في «دارنا» الجديدة . كانت مقدمة في ثلاثة صحون من القصدير ، قديمة قدم الزمن! والأكلة عبارة عن قطعة قرع في كل إناء ، على قدر أنملة الأصبع ، تسبح في قليل من الماء يحسبونه «مرقا» وقد تعد فيه نقط الزيت واحدة واحدة ! و ما هي إلا

هنيهة حتى بدأ لون «المرق» يتغير بقدرة قادر ، آخذا في السواد ! لم نتمالك أنفسنا حتى طفقنا نقهقه ونقهقه ، ساخرين من هذه الأطباق العجيبة ! أما قطع الخبز فكانت غير معجونة بما فيه الكفاية ، ولا هي تخمرت ولا تم طهيها بالكامل ! ولما انقشعت عنا نوبة الضحك المجنون تلك ، عدنا إلى «صوابنا» لنتفكر في جسامة المأساة التي نحن فيها . لسنا في زمن الضحك والسخرية ! فهذه الأطباق كانت وراء وفاة أربعة عشر شهيدا! وإذا استمر الوضع هكذا ، فسوف يأتي الدور على كل من في الـدار ، إلا إذا حدثت معجزة ! و نحن نضحك على كل هذا ؟! أنا الذي كنت أحسب أن «الدرب» كان بمثابة الدرك الأسفل من النار ، أضحيت الآن أذكره بنوع من الحنين! ...

مر ذلك النهار دون مفاجأة تذكر . وعند حلول المساء ، قدموا لنا وجبة العشاء ، وقد كانت عبارة عن لقمة من الشعرية المكورة كالعجين ، لا طعم لها ولا رائحة ، والتي ما فتئت أن أسودت هي بدورها بفعل الصدإ . هل نسخر منها كما سخرنا من قطعة القرع ؟ لا ، لم يترك لنا مجال لذلك!فقد جن الليل بسرعة ، وحل الظلام الدامس ليزيد الوضع قتامة . ولاحظنا أن السجن لا يتوفر على كهرباء! ورأينا من خلال الشقوق في الباب مصباحا «بتروليا» يرسل ضوءا فاترا من إحدى الزوايا البعيدة . حتى المصباح مصاب بالرعب كأنه يسمع ويرى ما يجري حوله من ترويع وتجويع!.

فتح الباب الخارجي ، وسمعنا وقع أقدام ثقيلة تقترب من زنزانتنا بسرعة . فتحوا بابنا وصاح أحدهم :

ـ من منكم كان خليفة قائد ؟

تقدم أحد صاحبي وقال :

ـ أنا !

ـ تعال إذن ، سترتقي إلى رتبة قائد ممتاز!

اقتادوه معهم ، واختفى عنا في الظلام . وبعد برهة ، سمعناهم ينهالون عليه بهراواتهم «العظيمة» في وقع متلاحق كوقع المطر الغزير . وعادوا يجرونه مع الأرض إلى أن رموا به جثة هامدة داخل الغرفة . ثم صرخ الجندي :

ـ أين الآخر ؟

فتقدمـت نحوهم و مضوا يهرولون بي كعصابة من اللصوص فرت بغنيمتها ، إلى أن دفعوني وسط «سقيفة العمليات»، والتفوا حولي كالذئاب الجائعة . تساقطت علي الضربات من كل صوب ، قوية ، موجعة ، متعاقبة ، تخنق الأنفاس . سقطت أرضا ولم أعد أقوى على الصراخ . عندها أوقفوني بعنف ودفعوني خارج السقيفة، وتوجهت مسرعا نحو الزنزانة ، والضربات تلاحقني حتى دخلت . استلقيت في إحدى الزوايا وقد ذهبوا بثالثنا ليأخذ نصيبه طبقا لمبدإ «المساواة وتكافؤ الفرص»... ولما انتهت مراسم الاستقبال هاته وأغلق الباب خلفنا ، بتنا نتأوه من شدة الألم ، ونتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، حتى غلب علينا النوم من فرط العياء والإرهاق ...

عظماء في وجه الموت

أفقنا في الصباح الباكر على أصوات الطيور تشقشق في براءة ظالمة ! كيف لها أن تغرد وسط العذاب والرعب والموت ، تماما كما لو أنها تصدح في جنة فيحاء ، أشجارها باسقة ، وأزهارها متفتحة توزع البسمات ، وتزرع البهجة والحبور في الحياة ! أيتها العصافير الجميلة ، ابعدي عن ساحتنا ولا تنشدي في هذا المكان البائس ! اذهبي إلى هنالك ، حيث المزارع والسواقي ، وحلقي في الأجواء البعيدة وارقصي في السماء . لكن احذري أن ينالك بطش هذه الوحوش البشرية المسعورة. إنهم إن يظفروا بك يذيقوك من العذاب ألوانا وألوانا!..

حاولت أن أتحرك من مكاني ، ولكنني لم أقدر . فقد كانت كل أعضائي منهكة شديدة الإيلام. وكنت أشعر بالوهن القاتل . وكذلك سمعت رفيقي يشكوان . قال أحدهما :

ـ لقد نصحنا الإخوة بالأمس بعدم الاستسلام للعجز ، والعمل على التدليك ما استطعنا .

وهكذا بدأ كل واحد منا يساعد الآخر في عمليات ترويض بدني ، وقد تفاجأنا بكثرة الكدمات المنتشرة في جلودنا ، كأنما نهشتنا جيوش من العقارب! وأخذت الحياة تعود شيئا فشيئا إلى عضلاتنا الممزقة ومفاصلنا المشلولة . وجاء الفطور الذي لم يكن يحتوي إلا على كوب «قصديري» من

الماء المحلـى ، ممزوجا بالقليل من القهوة السوداء الخالية من نكهة البن الأصيل . هكذا حفظنا في أقل من أربع وعشرين ساعة برنامج الإطعام الرسمي في هذا المعتقل الرهيب . ثلاث وجبات يجمع بينها عامل مشترك دائم : السواد! وأي شيء غير السواد يلون الحياة هنا ؟ : الغرفة سوداء ، والطعام أسود ، و ظلام الليل أسود ، و حتى الأفق الذي لا يلوح ، يغطيه السواد !.. مر ذلك اليوم دون جديد يذكر ، ما عدا أننا استطعنا التعرف على أسماء جديدة من المجموعة . وتلقينا من الإخوة لائحة الأفراد المتوفين . لم أعرف من تلك القائمة إلا اسمين فقط : « الشيخ حمادي وحمدي ابوزيد الرباني ». ولا أخفي أنني تأثرت كثيرا لوفاتهما ، لما عرفت في الرجلين من سمات النبل والشهامة وحسن الخلق . «الشيخ حمادي» لم أجالسه كثيرا، لكنه كان ذائع الصيت . فقد كان رجلا طيبا ، عصاميا و محبوبا ، معروفا بالبساطة ونكران الذات . أما «حمدي أبوزيد» فقد كان لي أحد أصدقاء الطفولة والشباب . كان شابا طموحا وشجاعا . وكان قوي البنية ، متقد الحيوية ، بعيد النظر . التقيت به لآخر مرة قبل اعتقالنا بأيام قليلة ، وكان مستاء كثيرا بسبب تجريده من جواز سفره ، وحرمانه من الذهاب إلى فرنسا ، بحيث كان عاملا هناك...

حل الليل ، ونزل الظلام ، فبتنا نترقب وعيوننا شاخصة إلى الخارج ، من خلال شقوق الباب . كانت الساحة تغرق في حلكة مخيفة ، رغم وجود المصباح البترولي في مكانه المعتاد . وكنا ننتظر وصول العفاريت في زيارة ليلية أخرى ، لنتلقى «حصة تكوينية» مثل التي تلقيناها البارحة . لكنهم تغيبوا عن الموعد لحسن حظنا !(حسن حظنا؟؟). هل انتهت مرحلة التدريب وأصبحنا أعضاء رسميين ؟ أم هي مجرد استراحة ؟ لنترك التأويلات جانبا ، ولنغتنم هذه الهدنة لنقضي ليلتنا الثانية في سلام ... ويبدو أن

هؤلاء القوم متمسكون بقيم «حسن الضيافة».فقد عملوا على احترام مبدأ «الأيام الثلاثة»، قبل أن يأتي رئيسهم في النهاية ليصدر قرار الإلحاق بالمجموعة :

ـ ها أنتم ستلتحقون بإخوانكم . ولكن ، قسما يا أبناء الحرام ، لو أسمع عنكم أبسط حركة خارجة عن الحدود ، لسوف أسويكم مع الأرض . الماضي لا يعاد ، هل فهمتم ؟

على إثر ذلك الخطاب الناري ، تم ضمنا إلى إخواننا . كان ذلك عشية يوم الفاتح من دجنبر من السنة السادسة والسبعين . غمرتنا فرحة عارمة ، وكأننا التقينا بعائلاتنا ! أصبحنا مع ثلة من الشباب في غرفة لا تتسع لأكثر من خمسة أفراد ، ونحن ستة عشر! ولكن ما عيب الازدحام إذا كنت مع إخوان يحبونك وتحبهم ، وتطمئنون بعضكم لبعض ، في ظروف تتطلب أقصى درجات التلاحم والتآزر؟.. كانت ليلة عجيبة ، نسينا خلالـــها كل شيء ، نسينا الواقع ، ونسينا أنفسنا ! وذهب الحماس بالبعض إلى أن بدأ يغني تعبيرا عن فرحة اللقاء . واستمر حفل الاستقبال المصغر إلى وقت متأخـر من الليل . وبحلول الصباح ، جاء الفطور، وسمح بعده بخـروج الرجال . وكان اللقاء الموسع مع باقي المجموعة . كان العناق حارا ، وكانت البهجة غامرة ! لكن شبح البؤس والتعاسة كان أيضا حاضرا بقوة : فالناس منهكون هزيلون ، كأنهم لبثوا في السجن سنين وسنين ! منهم المراهقون و الشباب والمسنون . ومنهم البدو والحضر ، و الأميون و المثقفون و أشباههم . عينة من المجتمع الصحراوي بكل فئاته ! وقليل منهم من لا يزال يتمتع بكامل قدراته .. فمن لم يكن يزحف ، كان يمشي بصعوبة . وكان بعضهم في حالة عجز تام ، و البعض في شبه احتضار!.. ومع ذلك كانت مظاهر الحياة موجودة : فهذه مجموعة تقف تحت أشعة الشمس لتأخذ قسطها من الدفء

و هذه فرقة تجمع الماء في أوعية بلاستيكية ، وتضعها جنب الحائط بغية تسخينها بحرارة الشمس، لتأخذ حماما دافئا ! وآخرون يقومون بتصبين ملابسهم أو ملابس زملائهم من المرضى والعاجزين . وكان لزاما علينا نحن الوافدين الجدد ، أن نزور أولئك المرضى الذين أصبحوا في حالة صحية متدهورة . كان من بينهم شيخ لم أكد أتعرف عليه لولا أن طلب مني الجلوس بجانبه ، فاخذ بيدي وقال لي بصوت لا يكاد يسمع من شدة الوهن :

ـ أنا «علوة الطاهر»، أبوك صديقي وابن عمي . ألا تذكرني ؟

ـ بلى ، أذكرك يا عم ، لكن طول العهد غير ملامحك قليلا .

والحقيقة أن شدة الهزال هي التي غيرت صورته بالكامل . فقد أصبح عبارة عن هيكل عظمي يتنفس . وكان بطنه منتفخا بشكل مثير .

سألته عن صحته ، فأجابني بنبرة يملؤها الإيمان والثقة :

ـ واللّه لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا . نحن مظلومون ، ونسأل اللّه أن ينتقم لنا من الظالمين. فأنا كنت في صحة جيدة ، حتى اعتدى علي أحد هؤلاء الجبابرة ورفسني بقدمه على البطن ، و ها أنت ترى !..

تركته و هو يود لو طال بقائي معه . و لكن الوقـت ضيق ، و المرضى كثيرون . و كان في نفس الغرفة رجل اسمه «عبيد السهيلي». حييتـــــه و مكثت معه دقائق معدودة ، و انصرفت لزيارة الآخرين :

«بوبة الكوري ، البلال الحبيب ، محمد ماء العينين ، سلامة أبا الحسن ، عياد الضميري...»

كلهم كانوا في حالة من البؤس الشديد ، لا مأكـــل يناسب وضعهم الصحي ، و لا فراش يليق بأجساد بقي منها جلد يكسو العظام ، و لا شروط نظافة تحمي هذه الأجساد المنخورة من التعفن . أما الدواء فلا سبيل حتى

لذكره ! شعرت بمرارة عميقة وأنا أمر على هؤلاء الرجال الواقفين على عتبة الموت ، وأسألهم واحدا واحدا. لكن الذي أدهشني هو ارتفاع معنوياتهم ، ورسوخ إيمانهم .كانوا كلهم واعين بمصيرهم ، ومع ذلك كانوا عظماء في وجه هذا المصير! بل كانوا واثقين من الشهادة ، فرحين مستبشرين بها ، وحجتهم في ذلك أنهم أبرياء مظلومون!...

انتهت ساعة «الاستراحة» ، وجاء الحراس مؤذنين بالدخول إلى الزنازن . التحقت بمقر سكناي الجديد ، غرفة «الستة عشر» كما أصبحت تعرف . غرفة تقع في ركنة من أركان البناية . لا نوافذ لها كما هو حال أغلب الزنازن الأخرى . خالية من كل شيء ، إلا من هذه الفرقة من الشباب القادمين جلهم من مدينة الطنطان . الفراش عبارة عن بطانية صغيرة لكل واحد . أما الغطاء فلا وجود له «عندهم » ، فهو يعد من الكماليات! عندما يغلق الباب ، فهناك وعاء بلاستيكي من سعة خمس لترات ، «قطع رأسه» ليلعب دور الكنيف . إذا اضطررت أن تقضي حاجتك ، فما عليك إلا أن تتفضل وتقوم بذلك على مرأى ومسمع الزملاء! كان هذا الموقف من أشد الأمور التي واجهتني في البداية . إلا أن الرفاق الذين سبقونا بالتجربة عملوا على مساعدتنا حتى تكيفنا مع الواقع بمرور الأيام .. في الغالب كنا نكتفي بالتبول داخل الغرفة ، ونرغم أنفسنا على انتظار فتح الأبواب ، لنكمل ما تبقى من عملية الإفراغ .. لكن ، عندما يصاب أحدنا بالإسهال ، فإننا نضطر إلى التسليم بالضرورة . آنذاك تعم الزنزانة رائحة لا تطاق ، تدمع الأعين ، وتحرق الأنوف ، وتثير الغثيان والدوار . ولكن التعود على الأشياء يكسب القدرة على التحمل . لقد بدأنا نطيق أمورا كثيرة كان مجرد الحديث فيها يسبب لنا التقزز والإشمئزاز .. تأقلمنا مع الأوساخ وانعدام الماء والهواء. وتكيفنا مع الازدحام وسط الحرارة المفرطة في زنزانة ضيقة مغلقة .

وكنا نرغم في أحيان كثيرة على إدخال أيدينا وأذرعنا إلى الآباط ، قصد تفريغ حفر الصرف الصحي المختنقة بالنفايات البشرية المكدسة . كل ذلك بوسائلنا الخاصة طبعا . فهم لا يمدوننا بأبسط الأدوات اللازمة للقيام بذلك العمل الشاق . وهناك فئران ضخمة تسكن في السقوف بالنهار . إذا سمعت حركاتها الصاخبة تخالها أكباشا متناطحة . أما بالليل فهي تهبط علينا وتبيت تنغص نومنا وتعكر أحلامنا ، بل حياتنا الشقية أصلا ! وكان للقمل حضور فاعل طبعا في هذا المشهد القاتم . تلك الساعة التي كانت تمنح لنا للإستراحة ، كان القمل يأخذ منها حيزا مهما :نقف تحت أشعة الشمس وننشر بعض الملابس والفراش ،فتبدأ الحشرات تتحرك تحت تأثير الحرارة ، ثم نشرع في عملية الاصطياد . ويأخذ كل واحد يجد ويجتهد للقضاء على أكبر قدر من الكائنات الخبيثة ، حتى يمل وتحمر أظافره وكأنما صبغت بأحمر الشفاه . وما هو بأحمر الشفاه ، ولكنه دم القمل ، بل دمنا المسروق !..

في الساحة يسمح لنا بالحركة المحدودة ، والكلام بصوت منخفض . أما النظر إلى أعلى فهو محظور . الحراس الواقفون على السطوح يرقبون كل شيء . وإذا سولت لسجين نفسه أن يرفع رأسه إلى السماء ، فتلك «وقاحة» ما بعدها وقاحة ! وسوف يؤدي عنها غرامة باهظة الثمن ! يكفي أن يشير إليه الحارس بالبنان ، حتى ولو لم ينظر إلى السماء ، ليدخل عليه الزبانية ويفعلوا به ما يفعلون ...

حادثة القلم

مرت الأيام تترى ، كئيبة عصيبة ، والأوضاع تزداد سوءا و قتامة . التغذية باتت رديئة لا تسد الرمق ، ولا تفي بأبسط حاجيات أجسام تذوب رويدا رويدا ، وتسير نحو مصيرها المحتوم . وتوالى سقوط الضحايا دون أن يثير أدنى اهتمام لدى جهاز الحراسة . كانت أول حالة وفاة شهدناها نحن الوافدون الثلاثة هي حالة الشيخ «علوة الطاهر». كان لوفاته وقع كبير في نفوس الجميع . فقد كان الشيخ معروفا بحب الدعابة والمزاح رغم معاناته الشديدة . ودعناه في جو من الخشوع والإجلال. إلا أن الإصرار على الصمود والتصميم على التحدي كان هو الطابع السائد . الجميع كان يدرك خطورة الموقف . لكن ماذا يفيد الإنهزام والموت قبل الأجل ؟ المحكومون بالإعدام يظل لديهم بصيص يتعلقون به حتى اللحظة الأخيرة. فقد يحدث أمـر ما ، غير متوقع ، وقد تأتي مفاجأة من السماء وتقلب الدنيا فتجعل عاليها سافلها ، ويخيب سعي الظالمين .. إنه الأمل في الحياة والتمسك بها ، يجعل الإنسان يحلم بالمعجزات ويصدق أحلامه ، وقد تتحقق الأحلام ! ..

في خضم ذلك الجو العصيب ، كان لا بد أن نبتكر أساليب لسد الفراغ القاتل ، خصوصا عندما تغلق الأبواب خلفنا داخل الزنازن الضيقة . بدأنا في غرفة الستة عشر ننظم « سهرات » مصغرة تتخللها مسابقات شعرية و ثقافية و بعض الأغاني والسكتشات البسيطة . وشرعنا ننظم بعض الألعاب

المتاحة مثل لعبة الشطرنج الصحراوية (ضامة) ونخوض فيها دوريات يدوم التسلي عليها إلى أن يحول دونها الظلام . وبما أن المستويات الدراسية كانت متفاوتة ، فقد قررنا تنظيم حصص تدريسية لفائدة ذوي المستويات الدنيا . وهكذا أصبحنا نملأ الفراغ بأمور التعليم والتعلم . وولدت الحاجة لدينا رغبة في البحث عن تطوير الوسائل الموجودة . بدأنا باستعمال قطع الجبس ، نحصل عليها من جوانب الجدران أو من سقف الزنزانة كطباشير نكتب بها على أرضية الغرفة أو على الواجهة الداخلية للباب . وتوصلنا بعد ذلك إلى طريقة أكثر نجاعة وأكثر سرية خصوصا ، علما أن اكتشاف ممارسة الكتابة من طرف الحراسة سيجلب علينا الويل كل الويل ! هم يتربصون بنا أدنى الفرص ، ليذكرونا بلغة العصا الغليظة ، فكيف إذا وجدوا ذريعة كهذه ؟ أولم يكونوا في الأيام الأولى يقتحمون السجن في جنح الليل ، بلا سبب ، ويأخذون «عشرة» من السجناء فيشبعونهم ضربا وركلا ، ثم يذهبون فاكهين ؟!.. اخترعنا إذن وسيلة الكتابة بالصابون . فقد وجدنا أنه يمكن استعمال قطع الصابون كأدوات للخط على بعض أنواع القماش . وكان لهذا الاكتشاف دور أساسي في إحداث ثورة ثقافية حقيقية داخل السجن! وفي الحقيقة ، لست أدري بالضبط من أية زنزانة انطلق هذا الاختراع العظيم ، لكنه انتشر بسرعة وأصبح ممارسا على صعيد السجن كله ، من دون أن يعرف من هو صاحب الفكرة الأولى، فيعترف له بحق «الملكية الفكرية» ويعطى له ما يستحقه من تكريم ! وقد كان لهذاالحدث بلا شك ، دور كبير أيضا في تلطيف جو الكآبة السائد ، وفي قتل بعض الوقت الذي كان يمر علينا ببطء شديد.. وأصبحنا بهذا العمل نشعر أننا نؤدي رسالة علمية ذات قيمة أخلاقية ومعنوية عظيمة في عالمنا الضيق ذاك ...

إلا أن حادثا مروعا سيقضي على تلك الثورة في مهدها ، وسيعصف بذلك

المكسب الكبير ويردنا خطوات بعيدة إلى الوراء ! كانت مجموعة من الأقلام توجد بغرفة خصصها الحراس كمستودع لبعض المحجوزات من أمتعة المعتقلين . كل ما في تلك الحجرة لم يكن ذا قيمة كبيرة بالنسبة لنا ، سوى أشياء ثلاثة : الكتب ، وهي مطلوبة طبعا ، ونحن في حاجة إليها ، لكن الحصول عليها لن يتأتى إلا إذا سمح الحراس بذلك . والأقلام ، وقد نحصل عليها بدون إذن الحراس ، إنما الأمر يتطلب كثيرا من المغامرة والسرية . وقد سبق لبعض الإخوة أن تمكنوا من جلب قلمين أو ثلاثة لما دعاهم الجنود لكنس المستودع ونفض الغبار عن الأمتعة . وهناك عنصر ثالث أثار اهتمامنا في تلك الغرفة ، بل كان يثير تشاؤمنا وامتعاضنا العميق . إنها قطعة كبيرة من القماش الأبيض الملفوف ، معدة لاقتطاع أكفان موتانا منها . كنا نرى ذلك الثوب الأبيض كل يوم من شباك المستودع . وكأنهم وضعوه عنوة في الواجهة ليقولوا لنا إن الموت أقرب من الحياة ...

اتفق الإخوان أن ينفذوا عملية اقتحام على المستودع من أجل الحصول على أحد الأقلام . وفعلا ، تنبهوا إلى أن باب الغرفة لم يكن محكم الإغلاق في ذلك اليوم . ولم يخطر ببال أحد أن رئيس الفرقة تركه كذلك عن قصد ليسقطنا جميعا في فخ واحد ! فهو تفطن إلى أن عدد الأقلام بدأ يتناقص ، وأراد أن يتأكد ، بتدبير تلك المكيدة النكراء !

دخل أحد الأفراد واختطف القلم بعد أن أشار له زملاء يرقبون الحارس الواقف على السطح ... وما هي إلا دقائق حتى عاد رئيس العصابة ليتفقد المستودع ، وليخلص إلى النتيجة التي خطط لها مسبقا :

ـ إذن سرقتم القلم يا أبناء اللصوص !..

هجموا علينا داخل الزنزانة بأسلحتهم المتنوعة : عصي وهراوات وسياط مطاطية و أسلاك كهربائية . وافترسونا افتراس الذئاب الضارية . وقد

خصصوا للثلاثة الجدد حصة وافرة من العقوبة ، زاعمين أن الشر كل الشر جاء مع العناصر الثلاثة ! وكان من نتائج ذلك أن أصيب صديقي «محمد» في رأسه إصابة قوية ، بات على إثرها يشكو من ألم حاد ، ما فتئ أن تحول إلى فقدان للشعور . فإذا به تارة يضحك من الأعماق ، وتارة يذرف الدموع على الخدين ، وأخرى يغني ، ويهذي فيختلط في هذيانه الماضي بالحاضر .. ولم يعد محمد من رحلته وراء السحاب إلا بعد ثمان وأربعين ساعة خشينا خلالها أن تكون رحلة بلا عودة !..

منذ ذلك اليوم (الثامن من مارس من السنة السابعة والسبعين)، عزلت مجموعة الستة عشر عن بقية المجموعة . وحرمنا من الخروج إلا عند أوقات الوجبات من أجل جلب الطعام وإفراغ الأوساخ . وكان ذلك يتم تحت وابل الضربات تتساقط علينا من كل صوب . أصبحت حياتنا جحيما في جحيم . وأصبحنا نتعرض كل يوم لأصناف التنكيل والإهانة . استمرت الأمور على هذه الحال أربعة أشهر كاملة ، بأيامها ولياليها . ولم يعف عنا إلا بعدما وصلنا درجة من الانهيار الصحي والمعنوي العميق . والحقيقة أن بقية المجموعة لم يكونوا أحسن حالا منا ، رغم ما عانيناه في الشهور الأربعة . فقد استمر سقوط الضحايا في تلك الفترة : توفي «عبيد السهيلي ، وبوبة الكـــوري و عياد الضميري و البتول سيدي ، ومومن حمدناه».

كان يوم عودتنا إلى المجموعة من جديد يوما تاريخيا مشهودا .

فرحة لا تضاهى ، بل إحساس بالخروج من الموت إلى الحياة ! كان ذلك في السابع من الشهر السابع من السنة السابعة والسبعين ! هكذا أصبحنا نتفاءل بذلك اليوم ذي «السبعات الأربع»!

مرت الأيام والشهور قاسية عصيبة ، لكن اندماجنا داخل مجتمعنا الصغير منحنا أملا جديدا ونفخ فينا روحا جديدة . وعدنا إلى جو الدراسة وسط

سرية مطلقة . ليس لأننا نسينا أو تجاوزنا مجزرة «حادثة القلم»، ولكن لنثبت تحدينا وصمودنا ، ولنواصل قيامنا بذلك الدور الذي أصبحت قناعتنا بوجوبه راسخة متينة . في ظروف كهذه ، يكون للروح الجماعية نصيب أساسي في المحافظة على توازن المجموعة والتحامها . وكان وجود المرضى عاملا رئيسيا في إحيـــــاء روح التضامن و خلق جـــو من التكافـــــل و التآزر . و قد أدى الشباب في هذا المجال رسالة نبيلة يسجلها لهـــم التاريخ . فكان المرضى يحظون بالكثير من العناية ، فتنظف ملابسهـــم و فراشهم ، ويقدم لهم ما توفر من طعام رغم ندرته ، ويعاملون بلطف فائق . ولن يكون من الإنصاف أن يخوض أحد في هذا الموضوع ، دون الوقوف عند اسم رجل ترك بصمته ناصعة في مجال التضحية و نكران الذات . ما كانـت له ثقافة ، و لا ولج باب مدرسة في أحد الأيام . لكنه كان بحرا زاخرا بقيم النبل و الكـــرم و الشهامة . كان من الأوائل الذين دخلوا إلى هذا السجن البغيض . ومنذ ذلك الحين ، سخر نفسه لخدمة الآخرين ، و تطوع للتكفل بالمرضى بلا تردد ولا تضايق : يسقي هذا ، ويطعم ذاك ، و ينظف آخر، ويصل الليل بالنهار ، حتى ذابت شمعته وانطفأت جـــذوته ، و التحق بأولئك الذين كان لهم الأخ المواسي ، و الطبيب الآسي ، فشهـدوا له بكـــل ذلك ، و نال الشهادة عن جدارة و استحقاق . إنه البطـل الشهيد « المهدي أحمد بارا » ..

كانت أغلب الحالات المرضية ناجمة عن سوء التغذية . وكانت أعراضها تتشابه إلى حد بعيد : تظهر أول علامة في أحد الأطراف السفلى ، وغالبا في أعلى الساق. فيلاحظ الشخص بروز نتوء تحت الجلد بحجم حبة حمص صغيرة ، بدون ألم في البداية . ويبدأ الجلد يأخذ لونا بنفسجيا على مستوى تلك الحبة . ثم تأخذ الساق في التورم شيئا فشيئا ، و تأخذ الحبة

في الذوبان ، تاركة مكانها لرضة تتسع رقعتها مع ازدياد التورم . ويبدأ الألم في الساق عند الوقوف ، ليضطر المريض على ملازمة الفراش . وبعد أيام ، يلاحظ على الشخص هزال شديد وتضعف شهيته فيعزف عن الطعام (وأي طعام؟) . وتختتم المأساة بإسهال شديد تصاحبه رائحة كريهة . في تلك المرحلة تصعب عودة المريـــض إلى الحيـــاة ، و يصبح موته شبه محقق . أما في المراحل الأولى قبل ظهور الإسهال ، فإن الشفاء يتأتى بسهولة مذهلة : بحقنة واحدة من «فيتامين ب 12»، أو بتناول حبات من التمر لمدة ثلاثة أيام ! ! كان الجهاز المسؤول عن السجن يعرف هذه الوصفة ويجيد استعمالها . فقد حدث أن استقدموا ممرضا عدة مرات ، كما حدث أن جلبوا كميات محدودة من التمر كان لها نفس الأثر السحري على المرض . لكنهم لم يكونوا يقدمون على ذلك إلا عندما يصبح عدد القاعدين أكثر من الواقفين ، وبعد أن يكون المرض قد حصد « ما يكفي من الضحايا » ! إنهم يتحكمون في وتيرة « القتل الممنهج ! »

مضى أزيد من سنتين و نحن لا نملك من الثيـــاب إلا ما دخلنا به إلى السجن . تمزقت الملابس فوق ظهورنا ، والتجأنا إلى عمليات الترقيـــــع و الصيانة . وأصبح البعض منا شبه عار لا يكاد يستر عورته ، والبعض يلبس أسمالا مرقعة ! ولم يبق لنا من الموارد إلا لباس الأموات . عندما يتوفى أحدنا ، يتولى أقرب الناس إليه ملابسه إن هو ترك شيئا ، فيعرضها للبيع . وعلى الذي تسلم تلك القطعة أن يتعهد بأداء ثمنها إلى عائلة الفقيد بمجرد خروجه من السجن إن كتب له ذلك .

عصر النهضة

في أواخر سنة ثمان وسبعين وتسعمائة و ألف ، فوجئنا بأول زيارة لمسؤول السجن، وهو القائد الإقليمي «للقوات المساعدة» بورززات .
كان عدد الشهداء قد تجاوز العشرين ، وعدد المرضى الذين دخلوا لائحة الخطر كذلك . مر القبطان على الزنازن ، الواحدة تلو الأخرى . كان رجلا متقدما في السن ، هادئا ، وديعا ، كأنه لا يعرف شيئا عن القساوة ، وكأنه لا يرتبط بما يمارس في هذه المؤسسة بأي ارتباط ! كان في كل غرفة يستمع إلى شخص أو اثنين بإمعان واهتمام . اطلع في تلك الزيارة على كل تفاصيل المعاناة : سوء المأكل ، انعدام الملبس والفراش ، الازدحام في الزنازن الملتهبة ، انعدام الهواء ، وكثرة الأوساخ وغياب الدواء ... وبما أن النقيب بدا منفتحا على كل المطالب ، أطلق المعتقلون العنان لكل ما يخالجهم من هموم وأشجان . فاشتكوا من الوضعية الغامضة التي هم فيها ، متسائلين عن مصيرهم وعن إمكانية محاكمتهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر إلى الحكم بالإعدام ! أبدى المسؤول تفهما كبيرا للمطالب «العادية»، ووعد بتلبية الكثير منها . « أما الأمور المتعلقة بالمصير وبالمحاكمة ، فتلك أشياء تتجاوزني ، ولا أملك لكم جوابا عنها!»...
لمسنا بعد تلك الزيارة انفراجا ملحوظا في واقعنا اليومي : أصبحنا نتمتع بوقت أطول للخروج إلى الساحة (وكانوا قبل ذلك قد هيأوا جناحا خاصا

للنساء) . ولأول مرة دخل عالمنا شيء « يقال له الحليب»!. وظهرت بعض الخضر « تزاحم » قطعة القرع ، وفي طليعتها البطاطس والجزر. و قد أدى ذلك الظهور بأحدنا إلى أن تغنى فرحة بقدوم البطاطس ، بأبيات حسانية مرحة .. و رأينا قطعة صغيرة من اللحم تزين أطباقنا فـــي أحد أيام الأسبوع ! بل و أصبح كل فرد يحصل على نصف علبة سردين مرة في الأسبوع كذلك !

أليست هذه نقلة نوعية بالغة الأهمية ؟ لا شك أن أمرا عظيما حدث فكان وراء هذا التحول السريع!. و في أحد الأيام الموالية ، فتح باب السجن ، وبدأ الحراس يدخلون أكياسا كبيرة ويجمعونها في البهو . ثم طفقوا يفتحونها وينشرون أشياء بداخلها . شيء لا يصدق : إنها الملابس ! ! حصل كل واحد على سروال وقميص ومعطف . ليست طبعا ثيابا جديدة ، وإنما ملابس مستعملة مستوردة ، وأغلبها ثياب نسائية . لكننا كنا سعداء بها أيما سعادة! وأي فرق في النهاية بين لباس الرجال والنساء ؟ أليس «المقصود من الكرة الجري؟» مضى ذلك اليوم ونحن نعيش جوا رائعا كما لو كنا في عيد . هذا يقيس ثيابه ، وذاك يتقايض مع صاحبه ، وآخرون يتحدثون على هامش الحدث ، حول هذا التحول الكبير الذي يعرفه السجن ، ويتساءلون عن الدوافع ، ويتشعبون في التأويلات ، حتى ذهب البعض بعيدا في التفاؤل ، فأخذ يجزم أن موعد الخلاص بات على الأبواب ! وزاد من تفاؤل المتفائلين أن القبطان عاود زيارته بعد أيام ، ليثبت وفاءه بوعده ، وليؤكد أن الأحوال سوف تستمر في التحسن . وفعلا ، فقد جلبوا لنا المصاحف بعد ذلك ، مما خلف أثرا طيبا في نفوس النزلاء . وعلى العموم ، فقد كان لتلك المستجدات انعكاس إيجابي على ظروفنا الصحية والاجتماعية والنفسية . حتى أصبحنا نعرف تلك المرحلة «بعصر النهضة». و برزت في تلك الفترة أنشطة جديدة

في مجال التجارة ، فازدهرت مقايضة الملابس وعلب السردين والتمر .. وكان لافتا ظهور أشخاص يتمتعون بنوع من التميز والفراسة في مزاولة هذا النشاط . وعلى صعيد آخر ، فتح الحراس باب العمل للسجناء القادرين . فأصبح بإمكانهم الخروج إلى الساحة الكبرى ، حيث توجد مساكن الجنود ، وحيث توجد حديقة صغيرة وبئر تسقى منها الأشجار وبعض المزروعات . في كل يوم تخرج فرقة من الشباب ، فيتوزعون للقيام بالمهام المسندة إليهم . وتتمثل تلك الأشغال عادة إما في كنس الساحة وإما في تنظيف المراحيض وملء الصهريج من ماء البئر بواسطة الدلاء .. وقد يكلفون في بعض الأحيان بصنع الآجر والمساهمة في بعض عمليات البناء المحدودة ، وترميم الجدران .. وقد رأى الشباب في ذلك العمل فوائد كثيرة جعلتهم يتحمسون للخروج يوميا إلى الميدان : فهو يمنحهم فرصة للترويح عن النفس واستنشاق الهواء . كما يتيح لهم الحركة والقيام ببعض النشاط العضلي . وهو كذلك فرصة للإحتكاك بالجنود ومحاولة البحث عن «بشير خير» بينهم ، قد يفتح منفذا على العالم ، ويساعد على كسر الحصار المضروب على السجن ... وقد بدا هواة التدخين أكثر تعطشا للخروج من غيرهم ، تحدوهم في ذلك رغبة جامحة في التقاط أعقاب السجائر ! وفي ذلك فتح جبهة جديدة من جبهات الصراع الذي يخوضه السجناء ضد جهاز الحراسة ، من أجل إثبات الوجود ..

وعلى المستوى الثقافي ، فقد توفرت الأقمشة الصالحة للكتابة على إثر وصول دفعة الملابس ، وأصبحت بدورها تمثل سلعة قابلة للتسويق . وساعد وجود المصاحف على إقناع الحراس بالحاجة إلى وسيلة بسيطة لكتابة بعض الآيات القرآنية «للشيوخ».ولما جاء القبطان، عرضت عليه تلك الطريقة المكتشفة محليا ، والمتمثلة في استعمال قطع الصابون .

فما كان منه إلا أن صادق عليها وأجاز الكتابة «بالأقلام الصابونية». منذ ذلك الحين ، تطورت صناعة الألواح الكرطونية المغلفة بالثوب الأسود ، حتى أصبح كل طالب يتوفر على الأدوات الأساسية اللازمة للغوص في بحر العلم والمعرفة ..

وتكونت نشاطات فنية موازية . فظهرت الإرهاصات الأولى للشعر والقصة و المسرح . ومن الطبيعي أن ترتبط تلك المظاهر الثقافية المتولدة من رحم السجن ، بواقعنا اليومي المعاش : « فالإنسان ابن بيئته .» !

و لما كانت قضية الصحراء سبب وجودنا في هذه المحنة ، بحيث لفقت لنا جميعا تهمة واحدة : « الانتماء للبوليساريو » ، فقد كنا مقتنعين كل القناعة أن مصيرنا مقترن بتطورات القضية ، شئنا أم أبينا . حتى أولئك الذين كانوا «ملكيين أكثر من الملك» ، باتوا يدركون أن لا سبيل لهم إلى الهروب ، وقد جرفهم تيار السيل العرم...

و الحقيقة أن الكثير منا كانوا يجهلون كل شيء عن القضية ، بل كانوا يجهلون كل شيء عن السياسة و السياسيين .. و إنك لتحتـار و يملأك العجب ، عندما ترى أناسا لا يمتون لهذا العالم الظالم أهله بصلة ، و لا يمثلون تهديدا لأي كان ، فإذا بهم يرمون في ظلمات السجن بقرار تافـه ، و يموتون من دون أن يسألوا عن شيء (لأنهم لا يعرفون شيئا أصـــلا) ، و من دون أن يكون لهم ذنب سوى أنهم محسوبون على نوع من البشر ! .. أصبح الجميع إذن مرتبطا بقضية الصحراء، متعلقا بأخبارها ، متلهفا إلى الاطلاع على مستجداتها اليومية . لذلك كان البحث عن «الطائر النادر» من بين الجنود ، أسمى الغايات . كيف يمكن هذا والحراس أغلبهم حاقدون ماقتون ، والتعليمات المعطاة لهم بالغة الصرامة ؟ .. وبمجرد أن برزت فرصة الخروج إلى الساحة للعمل ، بدأت تلوح بوادر الأمل : فهناك بعض

الجنود القلائل الذين أخذوا في التقرب إلى السجناء ، وطفقوا يتغاضون عن بعض الممارسات الممنوعة كالبحث عن أعقاب السجائر ، خلافا لما كان يبديه الآخرون من تشدد وتربص بالدوائر . تلك الثلة القليلة فتحت جسرا للأخوة والتضامن ، بتزويد النزلاء ببعض الحاجيات التي لا تخلو من أهمية رغم بساطتها . فهي تعبير صريح عن التعاطف مع أناس مقهورين ، والتمرد على سياسة التنكيل والإذلال المنتهجة من طرف السجانين . صار بعضهم يمدنا بعلب الكبريت وحتى بالدخان ، وصار آخرون يأتون ببعض الأخبار الشفوية ، وحتى بأطراف الجرائد ! في تلك الظروف الحالكة ، لم يكن القيام بأعمال كالتي كانوا يقومون بها بالأمر اليسير . وإنما كانت أعمالا بطولية جليلة لا يسعنا إلا أن نذكرها بكل جميل وعرفان! جنود أميون ، ينتمون لجهاز «مخزني» يحترف القمع والترهيب ، لكنهم كانوا يتحلون بالإباء والكبرياء والخلق الرفيع . والأجمل من كل هذا أن واحدا منهم لم يرفع يده يوما نحو سجين ليضربه ، ولم يفه بكلمة مارقة حتى ولو كان ذلك من قبيل التمويه أمام الآخرين !..

من بين هؤلاء الرجال الشرفاء القلائل ، برز شخص استثنائي ليس له مثيل ، آلى أن يذهب إلى أبعد الحدود في ذلك الإتجاه ، غير عابئ بالعواقب ..وقف يوما أمامنا وقال :

ـ أنا مستعد أن أمنحكم كل ما لدي ، فماذا تطلبون ؟

لم يكن لنا آنذاك إلا مطلب واحد ووحيد . فهل يمكن لهذا الشخص أن يوفره يا ترى ؟ لا ، مستحيل ! ! قال له أحدنا متلعثما في كلامه :

ـ نريد .. مذياعا !

لم يتردد الرجل لحظة واحدة ، بل كان جوابه مباشرا :

ـ سيكون معكم غدا !

جاءنا المذياع إذن ، وأصبح بإمكاننا أن نطلع على كل ما يجري في العالم ! لقد كان أعظم مكسب تمنينا تحقيقه في ذلك الواقع الموصود ، ولكنه كان أيضا لغما بالغ الخطورة ! فحذار من اللعب بالنار . بقدر ما كان التخوف من الكارثة كبيرا ، بقدر ما كان الموقف يقتضي منا درجة عالية من الحزم والحذر . كانت الآراء متضاربة في البداية ، إذ كان هناك تيار متحفظ يعارض وجود الجهاز بصفة نهائية. بل كان منا من بدأ يهدد بوجوب تصفية «الشر» أو إرجاعه لصاحبه ، وإلا فسيضطر هو أن ينادي على الحارس ليقول له :

ـ استرد مذياعك واكفنا بأسه وإلا فستتحمل العواقب !

وكان في المقابل تيار آخر متمسك بفكرة الاحتفاظ بالمكسب كيفما كانت الظروف، «وليقع ما يقع!».

كان لا بد من فتح حوار «مستعجل» من أجل تهدئة النفوس وتقريب وجهات النظر المتباينة . عمل أصحاب المبادرة على القيام بحملة لتلطيف الجو وتغليب المنطق ، حتى تتوفر الظروف الملائمة للإستمرار ، وحتى لا تنفلت الأمور من أيد ينا وتخرج عن السيطرة ، فيضيع كل شيء ، وتحل الكارثة التي لا تبقي ولا تذر ...

وهكذا تقرر أن يبقى المذياع عندنا ليلتين أو ثلاثا ، ثم نعيده إلى الحارس ، على أن يمنحه لنا في فرصة قادمة ، وهكذا ... كان لذلك الحل دور كبير في تجاوز الأزمة وإعادة المياه إلى مجاريها ، حتى تعود الجميع على ذلك الضيف النفيس واستأنسوا بوجوده وأصبح جزءا من حياتهم اليومية .. اتفق السجناء على عدم استعمال «الراديو» إلا ليلا ، وفي أوقات النشرات الإخبارية بالتحديد . أما خلال النهار ، فيجب أن يخبأ في مكان سري لا يعرفه إلا أشخاص محددون . ومع مرور الأيام ، أصبحت الأخبار تتداول يوميا ، وتوزع كل صباح بواسطة أفراد يكلفون بنقلها إلى ممثلي الغرف ، الذين

ينقلونها بدورهم إلى بقية المجموعة ..

وفي تلك الأثناء ، حدث أن تغير القبطان ، وهو المسؤول المباشر للسجن . فظهر بعض النكوص في أوضاعنا . وظهرت تقلبات جديدة في مزاج الحراس ، الذين يسهل عليهم الانتقال من حال إلى حال! وعلمنا في تلك الأيام بوصول مجموعة صغيرة من الصحراويين ، من بينهم ست نساء . وقد ألحقوا بجناح كان يتواجد به خمسة طلاب من داخل المغرب وأربعة جنود سابقين ، إضافة إلى شخص عاشر يمثل حالة معزولة . كما أضيف إلى نفس الجناح فرد غامض الأطوار ، يتحدث بلهجة شرقية ، عرف في قاموس السجناء « باللبناني »..

ساءت أوضاعنا من جديد ، و نقص الغذاء و انعدم الدواء . و توالى سقوط الضحايا لبضعة أشهر . فقد توفي « المهدي أحمد ، و هيبة ميارة ، و شي غالي مكية و الجيد كركوب ، و سلامة أبا لحسن ، و محمد ماء العينين ..»

و لما كان النصف الثاني من سنة تسع وسبعين وتسعمائة و ألف ، جاء القبطان الجديد يتفقد الأحوال ، و كأنه لم يكن على علم بما يدور في مؤسسته الجديدة . بدأ يتظاهر بالاهتمام الشديد والتعاطف العميق معنا ، ويعد بتغيير الأمور نحو الأفضل . وفعلا ، ما هي إلا أيام قليلة حتى أخذت الأوضاع في التحسن . عادت المواد الغذائية التي كانت «موقوفة» إلى الظهور ، كاللحم والسردين المعلب . بل سمح لنا بوسائل صنع الشاي من أباريق وكؤوس وقنينات غاز .. وتم تزويدنا بالسكر والشاي ! وعلى المستوى الثقافي ، فقد كانت القفزة عملاقة : حصلنا على السبورة والطباشير ، «وأطلق سراح» الكتب المحجوزة في المستودع ، وقد كانت تعود لأحد الطلبة الذين ألقي عليهم القبض وهم يستعدون لاجتياز امتحانات الباكالوريا .

اكتملت إذن وسائل التدريس . فما علينا إلا أن نسارع في تشكيل الأقسام

حسب المستويات ، وتعيين الأساتذة لمختلف المواد ، ثم بعد ذلك تحديد البرامج الدراسية وتوزيع استعمالات الزمن . كل ذلك تحقق بفضل جهود طاقم مستعد لتقديم كل ما لديه من معارف وأفكار ، وجعلها رهن إشارة تلاميذ متعطشين للتلقي والتحصيل ! ولا شك أن تلك المجهودات أعطت ثمارها في ظرف زمني وجيز . فبرز من بين التلاميذ عناصر يملكون كفاءات عالية وقدرات على الاستيعاب السريع .كان من بينهم من لم يسبق له أن جلس على مقعد للدراسة ، فإذا به في أشهر قليلة يعادل مستوى الإعدادي . وآخرون كانوا أوفر رصيدا إذ سبق لهم أن مارسوا التعلم ، فأصبحوا مؤهلين لاجتياز الباكالوريا ! و كان من حسن حظ هؤلاء و أولئك أن المدرسين كانوا متنوعين نسبيا ، بحيث وجد من بينهم من يتقن اللغة العربية ، ومن يجيد الفرنسية ،وحتى من له دراية بالرياضيات والعلوم ، والتاريخ ، والجغرافيا .. هؤلاء الأساتذة لم تكن لديهم مراجع ولا وسائل منهجية ، وإنما كانوا يعتمدون على ذاكراتهم واجتهاداتهم الشخصية . وقد شجعهم كثيرا ما كانوا يلمسونه من التلاميذ من تجاوب كبير ورغبة جامحة في التعلم واكتساب المعرفة . بالموازاة مع ذلك ، باتت تتبلور تجارب الإنتاج الفني والأدبي . وأصبح الجمهور الصغير يتمتع ببعض المحاولات المسرحية والغنائية ، ويستمع إلى قصائد الشعر ، وبعض القصص القصيرة والخواطر ...

الجزء الثاني
في جوار الورد

الـزلـزال

استمرت المرحلة الثانية من «عصر النهضة» عدة شهور ، قطعنا خلالها أشواطا لا بأس بها في مجال التعليم والثقافة . وكان لدخول صناعة الشاي في حياتنا اليومية دور كبير فـــي خلق مزيـــد من الاستـــقـرار و الارتياح ، إضافة إلى تلك «الجرعات السحرية» التي كان يمنحها لنا المذياع كـل مساء . تلك العوامل كلها جعلت الآمال تعود إلى النفوس ، وزادت من تحفيز الجميع على المثابرة والتحصيل واستغلال الوقت ... لكن رياح القدر لم تكن دائما مع اتجاه سفينتنا التائهة في الظلام . فقد حدث شيء لـم يكن في الحسبان . ذلك أن المعتقل الذي كنا نطلق عليه اسم « اللبناني » ، تمكن من كتابة رسالة موجهة إلى أحد السجناء ، يقترح فيها القيام بعملية فرار ! حصل الحراس على الرسالة في ملابس كانت موجهة إلى النساء قصد التصبين . فهذا الشخص كان يحظى بمعاملة استثنائية ، بحيث كانت الحراسة تهيء له طعاما خاصا ، يحرم منه سائر السجناء . أما ثيابه فقد كانت ترسل إلى النساء السجينات لكي ينظفنها فتعود إليه . ولكنه كان يجهل أنها تخضع لتفتيش دقيق قبل وبعد غسلها .

عثر إذن على الرسالة التحريضية ، فكان الزازال المدمر ! أحيل «اللبناني» على التحقيق ، و مورس عليه أشد أنواع التعذيب من أجل الكشف عن «خطته»، وعن الأشخاص المحتمل أن يكون قد اتصل بهم ، و عن الجندي

أو الجنود الذين زودوه بوسيلة الكتابة ، وربما بمعلومات عن السجن . كما تم تعذيب أحد الطلبة المتواجدين معه في نفس الجناح ، و عزله عن رفاقه عدة شهور بعد ذلك . و نودي على بعض السجناء مـــــن مجموعتنا للإستنطاق . بل امتد لهيب الحريق حتى وصل الحراس! وقد أصابنا الذعر الشديد مخافة أن يلحق «صاحبنا» مكروه ، بحيث كنا متأكدين أنه المتهم الأول في القضية ، وأن لا أحد غيره من الجنود يستطيع أن يدخل مع السجناء في علاقة من هذا المستوى . لكن العناية الإلهية كانت محيطة به، فخرج من المأزق الكبير بأعجوبة كبيرة !ويعود الفضل في ذلك بالأساس إلى ذلك الطالب الشجاع «محمد» ، الذي تحمل الكثير من الألم والعذاب والقهر ، غير أنه ظل صامدا مصرا على ألا يبوح باسم ذلك الرجل الشهم العظيم ، الذي سخر نفسه لخدمة كل المعتقلين بلا تمييز!

أما نحن ، فقد حلت بنا نقمة الناقمين !.. بالرغم من تأكدهم من خلال البحث أن لا دور لنا في ذلك التصرف المتهور الذي أقدم عليه «اللبناني» ، عملوا على صب جام الغضب على الجميع . فهم يدمرون كل شيء لمجرد وقوع حدث محدود الأهمية ، فكيـــف بمخطط مزعوم « لعملية فرار جماعية » ؟ قراراتهم دائما تتجاوز بكثير حجم «أخطاء السجناء.» لذلك كان موقفهم بأقصى ما يكون التطرف : تغيير موقع السجن ، و ســحق المعتقلين ، والعودة بهم إلى أسفل سافلين !..

كان «السوسي» (وهو الإسم الذي كنا نطلقه على صاحبنا) في دور الحراسة تلك العشية «لحسن حظنا» (وأي حظ !) . أخبرنا أنهم يعدون العدة لترحيلنا . فكانت فرصة لتوديعه وتسليمه المذياع ، إذ قال لنا :

ـ أعيدوه إلي أو أعدموه نهائيا ، فسوف يفتشونكم طبعا !

شرع كل واحد منا يهيئ نفسه ويلبس ما استطاع ، استعدادا للرحيل . فهم

لا يخبرونك بأي شيء هم عازمون عليه ، وإنما يعتمدون دوما على عنصر المفاجأة واقتحام السجن على حين غرة ...

و لما جن الليل ، بدأوا يتحركون تحركا غير عادي ، جعلنا نتأكد من صحة الخبر . هل قدموا لنا وجبة العشاء ذلك المساء؟لا أذكر ، ولا أعتقد أن أحدا من رفاقي يتذكر ، لأن الهول كان أعظم ! أطفأوا المصابيح كعادتهم عندما يقبلون على إحدى عمليات الظلام . فهم يفعلون ذلك مثلا متى أرادوا دفن أحد أمواتنا .. وطفقوا يخرجون المعتقلين واحدا تلو الآخر ، دون سابق إنذار ، بدءا من الغرفة الأولى عن اليمين ، حتى وصلوا إلى غرفتنا وهي من الأواخر . في صمت رهيب ، لا يتخلله إلا أوامر أحد الملازمين ، وقد عرفناه منذ سنة تقريبا ، كان ينوب عن القبطان في بعض الأحيان . وكان شديد القسوة على السجناء . سمعناه في تلك الليلة يقول :

ـ شددوا عليهم القيود ، وإذا أبدى أحدهم أبسط حركة فاقتلوه ، وأنا المسؤول .

كان يعطي تلك الأوامر باللغة الفرنسية ، لأنه كان يحب أن يظهر تميزه للجنود ، رغم أن هؤلاء لم يكونوا يفقهون حتى العربية ، وأحرى لغة أخرى ! كان الجميع مصابا بالرعب الشديد ، إذ كنا نعلم أننا بين أيد لا ترحم ، خاصة وأننا متهمون بجرم عظيم ! الفرار ! هل هناك شيء أخطر من الفرار؟. حدث مرة أن لاحظوا عصفورا تلتصق برجله ورقة ، فأقاموا الدنيا وأقعدوها ، واستنفروا كل قواعدهم من أجل الإمساك بالطائر المسكين ! ولما تمكنوا من القبض عليه ـ وقد كانوا «يتهمونه» بحمل رسالة من السجناء إلى الخارج ـ وجدوا أنها مجرد ورقة لعب علقها الأطفال بالعصفور ! حتى العصافير منها السعداء ومنها تعساء النصيب ! أي ريح طوحت بذلك الطائر الأحمق ورمت به في بقعة من بقاع جهنم ؟ أليست أرض اللّه واسعة

؟ ألم يكن بوسعه أن يسلم جناحيه للهواء ويطير في الأعالي حتى يحط في روضة فيحاء لا يوجد بها أحد من بني البشر ؟ تبا لحظ بعض الكائنات!..

عندما يدخل السجين إلى «سقيفة العمليات»، تلتف حوله عصابة من الحراس ، فيفتشونه بطريقتهم المهينة المعتادة ، ثم يعصبون عينيه ويرمون به إلى داخل الشاحنة كما ترمى الأغنام ، حيث يمسك به آخرون ليكبلوا يديه وراء ظهره بحبل متين . ولم يكن كل شخص مقيدا على انفراد ، بل عملوا على ربط الجميع برسن واحد ممتد ، حتى تستحيل أي حركة لأي واحد . ولما شرعت الشاحنات تتحرك ، بدأت رحلة العذاب الأليم ! كانت ليلة فريدة لم نشهد لها مثيلا من قبل ولا من بعد! ليلة طالما تذكرها السجناء ، بل وتغنوا بقساوتها وبما خلفته في نفوسهم من آلام وجراح . كان ذلك مساء الثالث والعشرين من أكتوبر ، من سنة ألف وتسعمائة وثمانين . كنا مكدسين كالبهائم ، وقد أطلقوا علينا أضواء كاشفة زادت من الحرارة داخل الشاحنات . وكلما مالت العربة ، توتر الحبل على سواعدنا ، فتضاعف الألم إلى حد الشعور بالموت ، وتوالى الصراخ والعويل ، فتعاقبت ضربات الجنود ينزلون علينا بأعقاب الرشاشات وبالأرجل ! لم تتوقف رحلة الجحيم إلا بعد ساعتين أو ثلاث ، كانت الدقائق فيها أطول من كل أحقاب الزمن !

شرعوا ينزلون «بضاعتهم» المسروقة في صمت مطبق ، وتحت جنح الظلام الدامس . أما نحن ، فقد كان فك القيود عن أيدينا ونزع العصابات عن أعيننا بمثابة الخلاص الكبير ! لا يهم بعد ذلك أن نعود إلى سابق عهدنا في الزنازن المغلقة ليل نهار ، فإن ذلك لن يساوي شيئا أمام الذي قاسيناه خلال السفر المشؤوم . هكذا هم رعاة السجون السرية . تمرسوا بأساليب العسف وقهر الإنسان والدوس على كرامته . وخبروا كيف يجعلون ضحيتهم ترضى بواقع معين : يشددون عليها الخناق ، وينزلونها إلى الحضيض ،

فتتمنى آنذاك لو تعود فقط إلى وضعها الأول!

ذلك ما وقع للسجناء الأشقياء المساكين . لما بدأ كل واحد يدخل إلى زنزانته الجديدة ويرى (بل يحس ويسمع في ظلام) بعض أصحابه بجانبه ، يأخذ الجميع في تبادل التحايا والتهانئ بنهاية مشوار الموت .

بعد مضي أزيد من أربع سنوات «بأكدز»، ها نحن ندشن حياة جديدة بهذا المعتقل ، وكأننا ندخل السجن لأول مرة ! كل شيء يعود إلى المربع الأول ، ويبدأ العد من الصفر .. سقط أول شهيد بعد يومين فقط من وصولنا إلى الربع الجديد ، وهو الشيخ «أحمد الترفاس»، الذي مات متأثرا بإصابة في بطنه على إثر ضربة تلقاها من أحد الحراس خلال السفر القاتل . وكان عدد الشهداء قد بلغ الثمانية والعشرين هناك في أكدز ...

أول ما يقوم به السجين عادة هو محاولة استكشاف المكان . كذلك أخذنا نستخدم كل حواسنا من أجل التعرف على وسطنا الجديد .

لاحظنا بداية أن الأبواب حديدية ، على عكس ما كان في أكدز حيث كانت الأبواب من خشب ، وكان يسهل ثقبها بواسطة الإبر والمسامير . وقد أتاح لنا ذلك أن نحصل على نقط نراقب من خلالها تحركات الحراس في دخولهم وخروجهم ، وحتى أولئك الواقفين على السطح . هم يرقبوننا ، ونحن نرقبهم : إنها لعبة القط والفأر الأبدية ..

استنتجنا من وجود الأبواب الحديدية أن البناية حديثة . كما لا حظنا أن جدران السجن ليست بالعلو الذي كانت عليه بناية أكدز ، وذلك يعني أن المعتقل لا يوجد وسط المدينة طبعا . وكنا نسمع أزيز الشاحنات ـ وهي قادمة ـ يرتفع بقوة كلما اقتربت ، مما يفيد أن الضغط على المحرك يزداد ، وذلك يعني أنها في صعود ، أي أننا نوجد على قمة جبل ، وهو أيضا أمر يفسر عدم ارتفاع أسوار السجن كثيرا . البناية مربعة الشكل تقريبا .

وتحتوي على أبراج تحتل زواياها الأربع . وقد قسموا البناية إلى جناحين ، أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . وقد تغيرت كتيبة الحراس كلها ، إلا أربعة عناصر بقوا من «الحرس القديم» ، وكلفوا بالتعامل المباشر مع السجناء برئاسة رقيب : يفتحون الأبواب ويغلقونها ويشرفون على توزيع الوجبات ، ويقومون بعمليات التفتيش الروتينية . كما خولت لهم كل الصلاحيات في معاقبة من يشاؤون ومتى يشاؤون .. التغذية أيضا عادت إلى الصفر : قليل من القليل ! إلا أن النساء المعتقلات تكلفن هنا بمهمة الطبخ ، بعدما كان طباخ « أكدز» يجتهد في العدوان عبر ما كان يقدمه من طعام . كان يفضل الكلاب ويمنحها الأسبقية ، فيغرف لها من الطبقة العليا من «المرق» ، و ما فضل عن الكلاب يبقى للسجناء .

قبلت النساء إذن تحمل تلك المسؤولية رغم ما يعنيه ذلك من جهد وعناء ، وهن اللواتي لم يكن عددهن في السنوات الأولى يصل إلى العشرين ، وكانت من بينهن أمهات مسنات ، وأخريات مريضات عاجزات عن كل عمل . تقبلن ذلك ولم تبق منهن خمس سنوات من القهر والتنكيل إلا أجسادا غثة نخرها الجوع والبؤس والحرمان . لكن عزيمتهن كانت أقوى من الحديد ومن الطغيان ! وكن مصممات أن يفنين ما تبقى من شبابهن في العطاء والتضحية . كانت ظروف عملهن أقرب إلى ظروف المستعبدين أو المحكومين بالأشغال الشاقة ، يستيقظن مع طلوع الفجر كل يوم ، ويشرعن في تهيئ العجين وإعداد الفطور ، ثم يذهبن إلى المطبخ حيث تقوم فرقة بطهي مئات قطع الخبز داخل غرفة مغلقة بها فرن يشغل بالغاز ، بينما تتكلف أخرى بإعداد طعام الغداء ، وبعده طعام العشاء . كل ذلك يسند إليهن ولا توفر لهن أبسط المستلزمات ولا القدر الكافي من المواد الغذائية اللازمة لإطعام المئات من الأفواه الجائعة ، خاصة بعد أن تضاعفت أعداد السجناء

في السنين الموالية ، وبعد أن أصبح الجنود يتزودون بالخبز مما تصنعه أيدي المعتقلات الصامدات ..

نـاقة حلـــوب

باتت كل علاقة بالحراس مستحيلة تماما ، ولم يعد هناك مجال للتقرب من أي كان. وانقطعت نهائيا كل أخبار عن العالم ، وقد كان المذياع يجعلنا أقرب إلى الدنيا ، ويمنحنا إحساسا بالإنتساب إلى سكان الأرض !

وفي إحدى الليالي الهادئة ، اكتشف بعض الإخوان من زنزانة ركنية موالية لأحد الأبراج ، أن أصواتا تصل إليهم عبر الجدران . أخذوا يرهفون السمع ويتحسسون ، حتى عثروا على نقطة يتسرب منها الصوت أكثر . ليس بما تستشف منه الكلمات بوضوح ، ولكن الكلام قريب . إذن فالحراس يسكنون وراء الحائط ، ولا شك أنهم يستمعون للمذياع .. ماذا لو تم التنقيب عن هذا الكنز الثمين بطريقة تمكن من استخراجه واستغلاله على الوجه الصحيح ؟ يجب انتظار حلول الصبح إذن ، لكي يتم استطلاع الأمور تحت الضوء .

وبالفعل ، لما أطل النهار ، بدأ «المهندسون» يتلمسون تضاريس الحائط مستعملين حاستي السمع والبصر ، حتى عثروا على شقوق صغيرة تنفذ منها الأصوات . واستنتجوا أنهم لو استطاعوا تعميق الشقوق في اتجاه سمك الجدار لتيسرت عملية التنصت أكثر فأكثر . كيف يمكن هذا بدون أدوات ؟ ولحسن الحظ ، تم العثور على سلك معدني كان له دور سحري ! لقد مكن ذلك السلك من تتبع بعض الشقوق بعيدا حتى كاد أن يخرج من الجانب الآخر! وكانت المعجزة : كل أحاديث الجنود يلتقطها السجناء بسهولة

لا تصدق . والمذياع كأنه بين أيديهم ! وسيلة رائعة ، و خالية من كل المخاطر ! و هكذا صرنا نتزود بالأخبار من أفواههم ، ومن الراديو والتلفاز ، من حيث لا يشعرون! أرادوا إبعادنا فقربونا ، وأرادوا قتلنا فأحيونا !

علمنا إذن أننا في «قلعة مكونة» ، عاصمة الورد! ما هذه المفارقة ؟ أيحق لبلدة تحتضن حدائق الورد البديعة ، وتستقطب عشاق الجمال من كل أصقاع الدنيا ، أن تخبئ في ثناياها سجنا يذاق فيه بنو البشر العسف والتنكيل ، ويموتون بالجوع والمرض والإهمال ؟ هل يجوز للبشاعة أن تكون مغلفة بالوان السحر والبهاء ؟...

العزلة أصبحت القاعدة السائدة في الوضع الجديد . ولم يعد الاتصال بين مختلف الزنازن ممكنا ، إلا بواسطة إشارات خاطفة خلال مرور الأشخاص بالقرب من النوافذ ، عند خروجهم مجموعة مجموعة بالتناوب . وعادت المعاملة القبيحة من طرف الحراس الخمسة ، الذين أصبحوا ينكلون بالسجناء ويذيقونهم أصناف القمع والتعسف كل يوم . ولطالما تربصوا الفرص لينظموا هجمة مباغتة على إحدى الزنازن ، زاعمين أنهم ضبطوا أحد الأفراد أثناء محاولته الإتصال مع غرفة أخرى ، فيلحقوا به أشد العقاب لخرقه القانون المقدس! وفي الحقيقة ، هم لا يحتاجون إلى ذرائع يسوقونها حتى يفعلوا ما يفعلون : فهل ساق الذئب يوما حجة على الغنم ؟..

وبات تمرير الأخبار بين الزنازن أمرا شبه مستحيل بسبب العزلة المفروضة والحصار المشدد . لذلك كان «المراسلون» يكتفون بإعطاء عناوين مقتضبة عن الأنباء المهمة . وبدأنا نخترع لغة خاصة لا يستطيع الحراس فك رموزها ، حتى ولو اوقعونا في فخ التنصت الذي دأبوا عليه ! كانت «الناقة» مثلا تعني عندنا المذياع ، و « الحليب»رمزا للأخبار ، «وأهل الغنم» تعبيرا عن الثوار .. فأي شيء تستغربه إذا سمعت صحراويين يتحدثون فيما بينهم عن

«الناقة والحليب والخيام ورعاة الغنم « ؟...

مرت عدة أسابيع هكذا ، وبدأ الجو يكفهر آخذا في البرودة بصورة لم نكن قد اعتدنا عليها في أكدز . بل حدث أن شاهدنا حبات الثلج تتساقط وتتكدس على قمم الأبراج الأربعة حتى أضحت هذه كمجموعة من شيوخ الأطلس ، وقد تجمعوا حول مائدة الطعام ، بعمائمهم البيضاء ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث حيال الموسم الفلاحي المقبل وما يتطلبه من عزم وتشمير عن السواعد ! وقد عزز هذا المشهد الطبيعي الرائع فرضية وجودنا على قمة جبل ..

مضت عدة شهور دون أن يتغير حالنا قيد أنملة .. وفي أحد أيام الربيع المفعمة بأريج الورد ، دخل علينا الزبانية وقد تغيرت ملامحهم وبدا عليهم الانشغال والتوتر ، كأن أمرا طارئا يسيطر على أذهانهم . شرعوا للتو يخرجون السجناء واحدا تلو الآخر . لم نصدق أننا ذاهبون في رحلة جديدة ، حتى إذا نحن يرمى بنا فجأة داخل الشاحنات كرؤوس الغنم ، وفي غمرة عبارات السب النابية المعتادة . الغريب أن هذا يحدث في واضحة النهار ، وقد كانوا في ما سبق ، لا يتحركون إلا والليل أرخى سدوله . وقد أثار انتباهنا في تلك الأيام تحرك طائرات الهيلكوبتر في سمائنا بكثافة .. لا شك أنه أمر مستعجل طرأ عليهم بغتة ولم يكونوا يقيمون له حسابا ! حتى «الناقة» لم ترشح لنا بما قد يوضح الصورة أو ينير الطريق .

الناقة؟ يا للتعاسة! هل سنبعد عن ناقتنا الحلوب يا ترى؟ تبا لهم ولما يمكرون!.. كانت الشاحنات قد أخذت طريقها نحو الهدف المرسوم ، وكل منا يجتر التساؤلات والظنون ، والعيون معصوبة ، والأيدي تشلها الكبول .

توقفت القافلة بعد ساعات ، وبدأوا ينزلوننا بالتتالي ، ويلقون بنا داخل حجرات مسكننا الجديد . إنه منزل كبير ، شامخ الأسوار ، ذو غرف فسيحة ،

مشتملة على نوافذ ضخمة كالأبواب. فناؤها مربع الشكل ، تتوسطه حديقة صغيرة مخضرة ، تزينها أشجار البرتقال المزهرة . كل شيء يوحي أنه كان أحد قصور «الكلاوي» ، المنتشرة بالمنطقة! ويبدو أن هذا القصر الجميل قد صمد في وجه عاتيات الزمن، وبات يحافظ على «شبابه» ورونقه ، على عكس قصر «أكدز»، الذي فعلت فيه الشيخوخة فعلتها، وغدا يفقد أحد أطرافه بين الحين والحين..

ومضت عدة أيام على مكوثنا في «قصر الربيع» نصبح ونمسي على شقشقة الطيور، ونتنفس عبير زهر البرتقال بالرغم من إغلاق الأبواب والنوافذ باستمرار. صحيح أن إقامتنا هناك منحتنا إحساسا داخليا بالإرتقاء إلى طبقة «سجناء القصور»! ولكن ، ماذا يفيدنا أن نقطن في قصر موصود لا يتسرب إليه خبر يدخل بعض الأمل على نفوسنا الظمآى ؟ بدأنا نحن إلى «قلعة مكونة»، حيث ناقتنا المدرار تجود باللبن الطري اللذيذ!.. وما هي إلا بضعة أيام، حتى عادوا لينقلونا مرة أخرى! هل كتب لنا أن نصبح أسرى متنقلين إلى النهاية؟ ومتى وكيف تكون النهاية؟ هل قرروا أن يجعلونا دائما مترقبين متخوفين من الرحيل؟ أم هم لازالوا في بحث مستمر عن المكان المناسب للأشقياء المناسبين؟...

وكم كانت فرحتنا كبيرة لما فتحنا أعيننا ، فإذا نحن عدنا إلى معتقلنا بمكونة! نعم، فرحنا بعودتنا إلى القلعة، ليس حبا في جدرانها السميكة، ولكن حبا في ناقة تسكن بين تلك الجدران. فقد قال أحد الشعراء يوما يغني بالحنين إلى الديار حيث «ليلاه» :

أمـر على الديار ديار ليلــى   أقبل ذا الجدار وذا الجـــدار
وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن ، حب من سكن الديار!

عانقنا الناقة بحرارة فائقة ، و درت علينا هي أيضا بحليب دافـــئ

منعش ، كأنها ترحب بعودتنا إلى الأوكار .. كان ذلك في شهر أبريل من سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف . آنذاك عرفنا أن قصر الربيع يوجد بقرية «سكورة»، وأن سبب نقلنا إليه لم يكن من أجل النزهة والترفيه طبعا ، وإنما كان القصد منه إبعادنا عن مدينة الورد وإخفاءنا هناك ، حتى تمر زيارة الحسن الثاني للقلعة في ظروف ممتازة! وقد سئل الملك من أحد الصحفيين خلال تلك الزيارة عن وجود معتقل سري بمكونة ، فأجاب أن المدينة معروفة بموسم الورد، وأنها خالية من السجناء. وقد كان الملك صادقا تماما في جوابه : ألم نكن وقتها نقضي إجازتنا في قصر الربيع؟..

عادت الحياة إلى ما كانت عليه في السنوات الأولى، كئيبة حزينة، شحيحة في كل شيء . المأكل لا يسد الرمق ، و الأبـــواب موصودة في أغلب الأوقات ، و لا تفتح إلا لبضع دقائق لكل أصحاب غرفة . حتى خروج بعض الأفراد لتنظيف ساحة الحراس وسقي الأشجار ، لم يعد ممكنا مثلما كان عليه الحال في أكدز . و لولا أن كنا نتزود بالأخبار من الحائط لكان الوضع علينا أشد قتامة و أكثر تأثيرا .

كانت قضية الصحراء تشهد تطورات ساخنة على كل المستويات . كانت المعارك العسكرية قد بلغت أوجها كما ونوعا ، وتوسعت رقعتها شمالا وجنوبا ، وامتدت في الغرب حتى تصادمت مع أمواج المحيط الأطلسي!.. أما على الصعيد الدبلوماسي ، فقد استطاعت القضية أن تفرض نفسها داخل أروقة الأمم المتحدة ، وتمكنت جبهة «البوليساريو» من استصدار قرارات هامة لدى الجمعية العامة . بل اكتسحت «الجمهورية الصحراوية» منظمة الوحدة الإفريقية ، وأصبحت دولة كاملة العضوية فيها بعد حرب ضروس ، انتهت بانسحاب المغرب من المجموعة..

و لعل تلك الأحداث الساخنة كان لها انعكاس سلبي على أحوالنا داخل

السجن . فقد توالت علينا السنوات العجاف، و صـــــــــرنا عرضة للإهمال و النسيان . بل كنا ضحية انتقام شرس ، و تعسف وتنكيل ، كأن لنا ضلعا في ما يجري دون البحار و خلفها !.. و هكذا عادت أعراض سوء التغذية تظهر في صفوفنا . و أخذت تنهش الأجساد وتحصد الأرواح. و كانت لي شخصيا فرصة المرور من تلك التجربة العصيبة . استفقت يوما ، فإذا بي ألاحظ تلك الحبة تبرز في أسفل ساقي اليمنى . حبة على قدر بذرة حمص، تنبت تحت الجلد ، لا ألم لها و لا تأثير يلمس . لكـــن وقعها على النفس كبير . فهي نذير شؤم تعود السجناء على رؤيته ، و عرفوا كيف تنمو تلك البذرة وتتمدد ، لتصبح في الأخير «شجرة» تثمر الموت !

ظل المرض يتطور ، وتورمت الساق خلال أيام ، ثم أخذت في التصلب حتى أصبحت كقطعة الخشب اليابس . وصار الوقوف عليها شديد الإيلام من فرط انحصار الدم في العروق. حتى القلب تأثر بذلك الوضع ، فأصبح الوقوف يسبب إجهاده ، فإذا هو يخفق بسرعة فائقة ، كعصفور ضاق درعا بالقفص ، فبات يرفرف يمنة ويسرة ، في محاولة للانفلات ، ولا انفلات!. ويصعب التنفس ، وتشعر بالدوار والغثيان ، وتضطر إلى القعود ، مودعا نعمة التنقل على الأقدام!..

لما وصل بي الأمر إلى تلك المرحلة ، بدأت أشعر أن شبح الموت بات يحوم حوالي . ولعل ما يخالج المرء في أيامه الأخيرة هو عودة الذكريات ، وصور الأهل و الأصحاب تتوافد عليـــه بإلحاح شديد ، كأنهم يودعون ويشيعون! و أخذت في الإنطواء على نفسي ، مغرقا في العيش مع صـــــــور الوالد و الإخوة والأصدقاء ، تاركا مهمة القيام بمتطلبات الحياة المادية للصديقين الحميمين «محمد فاضل، و مبارك»، اللذين لم يبخلا علي بعنايتهما الفائقة . فقد كانا يقومان بحملي على بطانية عند الخروج إلى الشمس . كما

عملا على تنظيف ملابسي و فراشي ، مثلما كان الإخوة يفعلـون مع سائر المرضى ..

و فيم أنا أعيش مع أوهامي وآلامي ، جاءت المفاجأة السعيدة . دخل الحراس ذات صباح وهم يحملون كيسا صغيرا ، و ما إن فتحوه حتى بدأ السجناء يصيحون متباشرين «إنه التمر ، إنه التمر !» الجميع كان يعرف ما لهذه الفاكهة المباركة من عظيم الأثر في علاج المرض القاتل!. وزع التمر ، وخص المرضى بحصص مضاعفة من طرف المجموعة : إنه التكافل الإجتماعي الذي طبع السيرة العامة لدى الجميع ، دون تخلف من صغير ولا كبير!.. ولم تمض إلا أيام قليلة ، حتى تبددت الأعراض ، وعادت الحياة للمرضى ، وعاد معها الأمل يراود النفوس السقيمة ! ولطالما تأرجحت مشاعرنا بيـــن اليأس و الرجاء ، خلال مراحل السجن الطويلة ! كانت قد مرت ثلاث سنوات عسيرة ، مريرة ، خطيرة ، و نحن قابعون بجوار الورد ..

رسالة الريح

و في أحد الأيام ، جاء الجنود ليأمرونا بالإنتقال مرة أخرى!و لكن رحلتنا هذه المرة لم تكـن عبر الشاحنات ، و إنما كانت على الأقدام ! مسيرة صغيرة ، كل يحمل خلالها متاعه بصحبته. تحولنا إلى جناح قريب ، يبدو أنه حديث البنيان . الزنازن مصممة على أساس أنها زنازن حقيقية منذ نشأتها : أبوابها من حديد سميك ، ونوافذها صغيرة «معلقة» في السماء ، لا تصل إليها أيدي المعتقلين ولا أعينهم ! وبالإضافة إلى تلك الغرف الجماعية ، هناك صف من الزنازين الفردية المعزولة ، معدة لمعاقبة «المارقين عن القانون». وهكذا وجدنا أنفسنا من جديد، نهبط إلى أسفل السلم في هذا الجناح المظلم! هناك في جناحنا القديم، على الأقل كانت النوافذ قريبة ، وكنا نطل منها على الساحة رغم الحصار . والأهم من ذلك ، كانت الناقة تغذينا بحليبها اللذيذ! أما هنا ، فلا شيء من كل ذلك . وزاد الطين بلة ظهور حشرات طائرة بحجم صغار الجراد، تكاثرت بسرعة منذ قدومنا ، وبدأت تغزو أجسادنا ، وتنغص حياتنا الشقية أساسا! وكان الزمن صيفا ، والزنازن مكتظة ، والحرارة لا تطاق! كنا كلما طرأ تغيير سلبي او إيجابي على واقعنا اليومي ، حاولنا أن نحلله من شتى الجوانب لمعرفة أسبابه ومبرراته . وكنا في الغالب نلامس تلك الأسباب ونشخصها من خلال الإطلاع على الأحداث الدائرة حولنا . و لكننا في هذه المرة ، لم نتوصل إلى السر الكامن و راء الزج

بنا في ذلك الجحيم المروع ! حتى الجنود كشروا عن أنيابهم بشكل غير مسبوق ! وقد وصل بهم الحقد في تلك الأيام أن تعمدوا أن لا يقدموا لنا الخبز إلا وقد مرت أيام عديدة على إعداده ، فأصبح صلبا كالحجارة أو أشد صلابة! ولما تقدم أحدنا يوما إلى كبير الحراس ليشكو له «قساوة الخبز»، أجابه بعد أن صفعه بلطمة كادت أن تسقطه أرضا :

ـ لو كانت الدولة ترجو منكم خيرا لما عاملتكم هكذا ، ولكن الدولة تعني ما تفعل، و ذلك ما تستحقون!

بعد شهرين أو ثلاثة، عادوا بنا إلى مقرنا القديم، حيث الناقة لا زالت حية ترزق! ولكم كان ارتياحنا عظيما لما عدنا إلى الديار!...

علمنا في تلك الغضون أن المجموعة المتكونة من تسعة أفراد منحدرين من مناطق داخل المغرب، قد أطلق سراح ثمانية منهم بعد أن توفي التاسع (ويدعى ميلود). وبلغنا أيضا وصول مجموعات جديدة من الصحراويين من بينها العديد من النساء . هولاء النساء تم إلحاقهن بجناح صغير مجاور لجناح نسوة مجموعتنا . أما ذلك الرجل الغريب الذي كنا نلقبه «باللبناني»، الذي أشعل في «البيت» نارا أتت على الأخضر واليابس، فقد نقل إلى وجهة غير معلومة ، بعد أن أخذت تظهر عليه بعض علامات الاختلال العقلي ، إذ كان في بعض الأوقات يطلق صيحات مدوية، مصحوبة بعبارات سب وشتم في حق «الصحراويين وجمالهم ونوقهم وكل ما يكسبون». وكأنه فهم ـ رغم اختلاله ـ أن سب الصحراويين في هذا الزمن شيء مباح ، بل عمل مستحب ومطلوب ..

مرت الأيام والشهور قاسية حزينة . وساءت أحوال السجن كثيرا ، حتى بدأ الضحايا يتساقطون تباعا .توفي « السالك عبد الصمد ، محمد منيصير، و محمد بدى ، و سليكة السالك»... حتى الأخبار الواردة عبر الحائط لم

تكن تحمل جديدا يذكر ، سوى أن الحرب في الصحراء باتت على أشدها . و استمرت حالة عزل الغرف عن بعضها لسنوات عدة ، مما أدى إلى تجزيء الوقت المخصص للخروج للساحة من أجل إفراغ الأوساخ ، و استنشاق الهواء و تنظيف الملابس ...

كنت في أحد أيام الخريف المكفهرة أسير في الساحة قبل أن يأمر الجنود بالدخول. أدور حول «صهريج التصبين» ، وهو مربع صغير من الإسمنت يتوسط الفناء ، يستعمله السجناء كموضع للغسيل، ويشكل محورا يحومون حوله في دوراتهم الروتينية، التي تمثل لديهم نشاطا يوميا مهما ، اعتادوا القيام به كلما سمح الوقت بذلك. كنت غارقا في أفكاري، أتساءل :

«ـ هل سيأتي يوم ياترى نرى فيه النور، و نعرف نهاية لهذه المحنة الطويلة؟» و ربما كنت منهمكا في جمع شتات بعض الكلمات المبعثرة ، لأصوغها في شيء يشبه الشعر ...

ازدادت قوة الريح بغتة ، فتطاير الغبار في الفضاء ، و تناثرت بعض الأوراق في السطح ، و سقطت أمامي قطعة صغيرة ، فإذا هي جزء من إحدى الجرائد . التقطتها بسرعة وخبأتها في جيبي بعد أن تأكدت أن الجندي في الأعلى طردته الرياح ولجأ إلى ركنة بالقرب من أحد الأبراج . كان الحرمان من القراءة والكتابة يمثل وجها من أوجه معاناتنا الطويلة . لذلك كنا كلما حصل أحدنا على شذرة من ورق مكتوب ، مهما كان حجمها ، وكيفما كان محتواها ، يعمل على تدويرها على الجميع حتى يقرأها كل من له رغبة في ذلك ، مع مراعاة المحافظة عليها وتأمين تنقلها بسرية . وقد يطول تداولها أياما بل أسابيع. وقد يعيد قراءتها أحدنا عشرات المرات ..

كان يفترض أن تأخذ القطعة التي حصلت عليها مسارا على تلك الشاكلة. لكن الأمر لم يكن كذلك.لقد كانت كأنها رسالة موجهة إلي : « كلميم ،

استفحال الجريمة!» هكذا كان العنوان . أما المضمون ، فيتعلق بالعثور على جثة «الأستاذ الإمام-ع » ، ملقاة في أحـــــــد الأزقة ! كانت صدمتـــي قوية ، وكان تأثـري أعمق ما يكون التأثر . فالأستاذ المذكور كان أحد زملائي في المدرسة . وعرفتـــــه بعد ذلك في ثانويـــة «يوسف ابن تاشفين» بأكادير ، صديقا بشوشا وخلوقا يحظى باحترام الجميع . وكان معروفا بمهارته المتميزة في ممارسة لعبة كرة القدم ، حتى أنه بدأ يستقطب الإهتمام لدى بعض الفرق الكبرى آنذاك . إلا أن سلوكه عرف انكسارا مؤسفا غداة التحاقه بالجامعة بالرباط . ذلك أنه لجأ إلى معاشرة بعض رفقاء السوء ، فقادته تلك المعاشرة إلى دروب الانحراف والتهور ، و دمرت حياته بشكل مريع ، وكانت النتيجة ذاك المصير المفجع!

مزقت «رسالة الريح» ، و انزويت في ركنة من الغرفة بعد أن حكيت على الأصدقاء فحواها . وقلت للريح :

ـ لا شكرا ولا جزاء أيتها الريح! أتسخرين مني ؟ أهذا كل ما تودين إيصاله إلي؟؟ تمنيت لو تأتينني بما يثلج الصدر ويسقي العروق ، فإذا بك تجرحين الجراح وتحرقين الحروق! أم أنت نفس الريح الهوجاء التي رمت بي ومن معي في هذا الخضم المظلم الظالم ، ورمت «بالإمام» ومن معه في خضم آخر أشد ظلما وإظلاما ، فتاه في مهامه الضياع والخسران! ليته واصل التألق في مجال تلك اللعبة الجميلة ، فصار نجما من نجومها المتلألئة . ليته لم يطرق باب الكلية ، بل ليته سجن وعذب ، ومات من أجل قضية !...

بعد طول قطيعة وهجران داما بضع سنين ، أطل علينا «قمر القبطان» لأول مرة منذ عقاب الترحيل ، وما نجم عنه من بطش واضطهاد وتجويع . أطل علينا القمر بعد أن غيب الموت منا عدة شهداء . وكأن شيئا لم يقع : مجرد عملية تأنيب وتأديب ، لأن أحدنا ارتكب «حماقة طائشة لا تحتمل»، ولأن

قانون السجن يقضي أن يضرب على الجميع بيد من حديد ، حتى ولو لم تكن لأحد صلة بصاحب تلك الرسالة البائسة ! هم يطبقون مبدأ «الإستئصال من الجذور»، ويعتمدون على سياسة «المسح الموسع». فكانوا مثلا إذا تشاجر اثنان من السجناء (وقد يحدث ذلك نظرا للظروف الصعبة التي تؤثر على النفسيات وتضغط على الأعصاب)، يقومون بمعاقبة الطرفين كليهما، دون السؤال عن أسباب الخلاف أو عن الجانب المخطئ . وقد تصل العقوبة أطرافا أخرى لمجرد أنها كانت حاضرة في عين المكان ساعة الحدث! وغالبا ما يكون الجزاء أكبر بكثير من السبب : إذا دخل عليك «المفتشون» بغتة ، ووجدوا في حوزتك «نصف شفرة حلاقة» قديمة، فتوقع أن العقاب الذي سينزل بك أدهى وأمر مما تتصور!..

بدأ المسؤول دورته المألوفة على الغرف ، للتحقق من نجاعة خطة التأديب التي أخضع لها السجناء من جهة ، ولكن لإعطاء البرهان أيضا على «الصفح والغفران»، وتجاوز مافات .. وبدا متفائلا بالمستقبل ، متفهما لكل المطالب كعادته ، دون التطرق إلى ما جرى في السنين الأخيرة ، ولو بالإشارة . وشرع للتو في إعطاء الأمر بفتح الأبواب طيلة النهار ، والسماح بالخروج الجماعي إلى الساحة . كما وعد بإعادة الكتب والسبورة والألواح ، ومستلزمات الشاي . وكان وعده صادقا ! بل سمح بإيفاد طبيب لفحص السجناء ومعالجتهم . كما سمح بتزويد المدخنين بالسجائر . ولوحظ تحسن واضح في مائدة الإطعام بعد تلك الزيارة . تنفس المعتقلون الصعداء ، وعادت إليهم الروح والأمل ، وانطلقوا في أشواط جديدة من المثاقفة والعمل الدؤوب في عالمهم الصغير . تشكلت الأقسام مرة أخرى ، وأعدت البرامج من طرف لجان التدريس .وبدأ العمل وفقا لاستعمالات الزمن ، وتوزعت الحصص طبقا «للساعة المائية « التي تنظم الوقت بالتكافؤ . وهي عبارة عن قنينة

بسعة لتر واحد ، اجري بها ثقب صغير في الأسفل ، تملأ بالماء عند بداية الحصة ، وتأخذ في التقطير ، لتكون نهاية الدرس عندما تصبح القنينة فارغة. وكان الحماس فائقا عند المعلمين مثلما هو عند المتعلمين . الكل مدفوع وراء رغبة قوية لتحقيق شيء ما ، حتى لا تمضي الشهور والأعوام كما أرادها السجانون : كئيبة ، عقيمة ، بلا جدوى ! الكل كان ضد الرضوخ والإستكانة ، رغم أن ثقل السنوات بدأ يكرس في النفوس إحساسا متزايدا بضيق الأفق والتباس الرؤية .. وبدا في الأسابيع الموالية أن زيارة النقيب الأخيرة كانت بمثابة «حجة الوداع»، وأن ظهوره المتأخر بعد سنوات الجحيم ، لم يكن سوى استعداد لتسليم السلطة ، وفسح المجال أمام رئيس آخر يأخذ بزمام الأمور ، ويقود القافلة نحو هدف لا تزال دونه الكثير من العقبات ، والشعاب ، والصعاب ..

قناع صالح

وأخيرا ظهر القبطان البديل . رجل طويل القامة ، شديد بياض الوجه كتمثال الثلج. وقد زاده نصاعة وصول الطلائع الأولى من الغزو الأبيض إلى مشارف رأسه وشاربه . لم تبد عليه دهشة الدخول الأول على عالم الأحياء الأموات الذي كنا ننتمي إليه . ولم يتفاجأ بمنظر هياكل بشرية تلبس أسمالا مرقعة ، كأنك في ضريح لأحد «الأولياء» وقد حج إليه الجياع والمتسولون من كل مكان ، طلبا لما يسد الرمق .

انطلق المسؤول مباشرة في حديث مفعم بالعواطف الجياشة . ومضى يرسل النصح الجميل ، ويجود بالموعظة الحسنة . وبدا أن لهذا الرجل شخصية أخرى ، غير التي عرفت لدى سلفه . فبقدر ما كان المنتقل كتومـــــا متحفظا ، ينصت أكثر مما يتحدث ، جاء القادم ميالا للكلام إلـــى حد الثرثرة ، شديد الاندفاع وراء مشاعره ، لا يتيح لمخاطبه فرصة الرد على ما يقول . يوحي أنه يرى ما في الضمائر ، ويقرأ ما بين السطور . فهو أستاذ ، وعالم ، وفقيه . جاء ليقول لنا : « إن يعلم اللّه في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا.» وجاء ليقول في نفس الوقت إن قلبه مليء بالخير والإحسان . كل الدلائل أكدت أنه رجل صالح . و من باب الصدفة أن كان اسمه «صالحا».فقد شرع منذ البداية في إحداث تغييرات إيجابية على كل المستويات . تحسنت التغذية في الأيام القليلة الموالية بشكل لا يدع مجالا للشك . وازدانت «خزانتنا»

بمجموعة من الكتب الجديدة . كما حصلنا على دفعات من الملابس جعلتنا في غنى عن الترقيع ، بل مكنتنا من الحصول على أغلفة للألواح . وكان لذلك الإنفتاح الملحوظ أثر محمود على تصرفات الحراس ، مما أتاح لنا الحصول على مزيد من المكاسب . فأصبحنا مثلا نحصل على صناديق «الكرطون» الفارغة التي كانت تستغل في البداية خصيصا في مجال الكتابة . ولما تزايد العرض منها وتوافرت بكميات كافية بفضل «تكرم الحراس»علينا بالكرطون ، بدأت تظهر صناعات جديدة كصناعة الحقائب . وبرز في ذلك المجال عمال ماهرون ، يعتمدون على تقوية الصفائح بإلصاقها ببعضها بواسطة الغراء المشتق من الدقيق المتوفر لدى النساء ، ثم تغشى الصفائح بأنواع الأقمشة الملونة . وكان من أهم الإنجازات التي حققها لنا القبطان صالح ، أن عمل على استقدام طبيب بات يقوم بزيارات شبه دورية للسجناء صحبة أحد مساعديه . بل أصبح بالإمكان نقل المرضى إلى مستشفى ورززات متى دعت الضرورة إلى ذلك ..

مضت أشهر عدة ونحن في تعايش وانسجام مع مسؤولنا الذي عودنا على زياراته الميدانية ، وأحاديثه المفعمة بالعبر والدروس ، حتى جزمنا وأيقنا أنه «الإسم على المسمى». وفجأة هبت الريح العاتية ، وسقط القناع الزائف ، فتغير مزاج الرجل بين عشية وضحاها ، وتحول «الولي الصالح» إلى وحش كاسر ، لا يتورع عن النطق بالألفاظ البذيئة أمام الجميع ، وكأنه يقصد أن يدمر كل حواجز الحشمة والحياء بين الآباء وأبنائهم ، والإخوة وإخوانهم ، وهو يعرف تماما أن بيننا أسرا بكاملها ، وأن الكثير منا تربطهم علاقات قرابة أو مصاهرة .. وأخذ المسؤول الشرس يثير في كل زيارة يقوم بها إلينا ، زوبعة من السب والشتم، ليترك بعدها مجالا للحراس كي يعودوا إلى ممارساتهم المعهودة ، وهم الذين يتقنون مبدأ «الرعية على قلب الأمير»

.. دخل علينا أحدهم ذات مرة وبدأ يسأل :

ـ من كان منكم ينطق بعبارة «كاهاو»؟

أجبناه في تعجب أن أحدا لم يفه بهذه العبارة الغريبة . و أصر على السؤال بلغة التهديد. حاول بعضنا أن يطمئنه مؤكـــدا أن هذه الكلمة لا تعني شيئا ، و قد يكون فحسب سمع عطسة أحد الشيوخ . لكن الحارس ظل متشبثا بسؤاله الذي سرعان ما تحول إلى تهمة خطيرة :

ـ أنتم تبتكرون كلمات سر ترسلونها هكذا إلى النساء بجواركم ! !

و بعد أن فند كل ردودنا وأثبت الجريمة علينا ، استشـاط غضبه أخيـــــرا ، و مضى يسب و يلعن ، و يضرب بعصاه الطويلة كل من جاء في طريقـــه ، و يركل ذات اليمين وذات الشمال ، مطلقا العنان لكل ما «جادت به قريحته» من الأوصاف الساقطة والنعوت الحاطة بالكرامة ، حتى أخذ يلهث والعرق يتصبب من وجهه المحمر من الشرر . وانسحب في الأخير وهو يلقي علينا باللائمة لما حصل :

ـ أفسدتم علي صيامي هذا النهار يا أبناء الحرام !

(وكنا في شهر رمضان!).

اكتشفنا في ما بعد أن السبب في هذا التغير المفاجئ الحاصل في سلوك القبطان وحاشيته ، وصول مجموعة أخرى من المعتقلين الصحراويين!فقد تعودوا أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الصفر كلما قدم زوار جدد . أصبحت كل أجنحة السجن مملوءة من المرتفقين الآن .

وفي أحد الأيام ، فتح الحارس باب جناحنا، وقد أمسك بيد شاب متوسط القامة ، أسمر اللون ، وسيم الوجه . وأخذ يقوده إلى أن وقفا أمام زنزانتنا . نادى الحارس على «محمد فاضل» وقال له :

ـ هل تعرف هذا ؟

فأجابه :

ـ نعم ، إنه أخي «محمد البشير».

ـ إنه سيبقى معكم من اليوم!

وما أن انصرف الرجل حتى هب السجناء من شتى الغرف يتسابقون لتحية محمد البشير . أخذ كل واحد يعانقه بحرارة ويشد على يديه ، ويسأله عن حاله . ولكن الشاب كان في شبه غياب : نظرة شاردة ، وكلمات خافتة ، وإجابات مبهمة . وكان يحرك أصابع يديه باستمرار ، بطريقة لا إرادية ، ويطلق في بعض الأحيان ضحكة غريبة لا تفتأ أن ينطفئ نورها لتحل مكانها سحابة من الحزن والكدر العميق . كان منظر الشاب في غاية المأساوية . وكان ينم عن عمق الكارثة التي حلت بأسرة «الليلي». أسرة زج بكل أفرادها ، من الأب ، إلى الأم ، إلى الأخ والأخت ، إلى الخال والعمة . حتى هذا الفتى الذي لم يكن عمره وقتها يتجاوز عشر سنوات ، هاهو يلحق بهم بعد اثني عشر عاما ، وقد قضى مدة طويلة مكبل اليدين والقدمين ، في زنزانة انفرادية ضيقة ومظلمة ، إلى أن جيء به إلى المجموعة وهو فاقد البال لا يكاد يدرك من هو ولا أين هو! حتى أبوه الشيخ الذي ضمه بحرارة تشي بعمق الشوق والحنين ، لم يجد في حضنه ذلك الدفء الذي يراه كل طفل يرتمي في صدر أبيه بعد طول حرمان . شعر الوالد المكلوم بذلك الجفاء المرضي ، فتنهد من أعماقه ، واغرورقت عيناه وسالت منهما دمعة ساخنة على خده الشاحب ..

ولم تكن تلك الأسرة الوحيدة التي طالها بطش وتشريد . فقد سيقت عائلات غيرها كثيرة إلى السجون ، ونالها ما يعز وصفه من أنواع القهر والتنكيل . فأسرة «عبد الصمد» مثلا زج بأبيها وأمها وابنتيها ، اللتين لم تكن إحداهما تتعدى سن الرابعة عشرة . وكان من سوء حظ الفتاتين المسكينتين أن

عايشتا والدتهما «البتول» وهي تتاوه من فرط الألم ، وتصارع الموت من دون حبة دواء تخفف من أوجاعها ، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في ظروف شديدة الفظاعة . ولم تقف مأساة الأسرة عند هذا الحد . فقد شاءت الأقدار أن يلم المرض القاتل بالوالد بعد سنوات من العذاب ، لينادى على الفتاتين المسكينتين فتجدا أباهما جثة هامدة ، وقد نخره الداء ولم يترك منه إلا العظام ، فتلقيا عليه النظرة الأخيرة وتودعاه في مشهد إنسانـــــــــي (أولا إنساني) مروع !...

كثيرة إذن هي تلك الأسر التي كتب لها أن تمزق وتكون ضحية لسياسة حمقاء ، تلصق الإتهام بمن لا تهمة له ، وتأخذ بالذنب من لا ذنب له ، وتخبط خبط عشواء ليس لها بصر ولا بصيرة . وكثيرون أيضا هم الأشخاص الذين دارت عليهم الدوائر عينها ، فإذا هم يغرقون في وحل الإهمال واللامبالاة . إذا سمعتهم يحكون قصص القبض عليهم ، تخالهم يمزحون ، لكنه المزاح المغلف بالكآبة والسواد! فهذا أحدهم جاء لزيارة عمه بمدينة الطنطان قادما من العيون ، وصادف ذلك دخول الشرطة على منزل العم لاعتقاله ، فأرفقوه به قائلين :

ـ لا بأس أن تصحب عمك إلى المخفر حتى تعودا غدا معا!

فعاد الزائر بعد خمسة عشر عاما ، وأما العم فما عاد ولن يعود ..

وآخر جاء هو أيضا إلى المدينة صدفة ، وقبض عليه صحبة خاله ، لكن مسؤول المفوضية ارتأى هذه المرة أن لا داعي إلى حبسه إذ لم يكن اسمه ضمن لائحة المطلوبين ، فأخلى سبيله . غير أنه رجع في اليوم الموالي بمحض إرادته ليطلب ساعته وقد أخذت منه بالأمس .

نصحوه أن ينسى الساعة وينجو بنفسه ، لكنه أصر على طلبه «المشروع»، فبقي عشرات آلاف الساعات ، في انتظار الساعة !

وثالث قدم من فرنسا ، ومعه ابنه الطفل ذو السنوات الأربع ، قصد إقامة حفل ختان له على الطريقة التقليدية ، في جو عائلي حميم .

قبض عليه وغاب عن الأنظار . وبقي الطفل مشردا محروما من الدراسة . ولم تستطع أمه الفرنسية أن تسترده وتأخذه إلى بلدها أمام تعنت أسرة الأب ، فتخلت عنه نهائيا وراحت لبناء حياة جديدة . وأما الرجل الذي خرج بعد خمسة عشر عاما معتوها نفسيا وجسديا ، فكان يعزو سبب اختطافه إلى كونه تحدث عن المسيرة بطريقة غير لائقة ، رغم أنه كان من أشد المتحمسين لها والمدافعين عنها ، بحيث صرح في إحدى جلسات الشاي أنها لم تكن سلمية تماما ، بل كانت مصحوبة بالقوة!..

ولم يكن المس من «قدسية» المسيرة قد جنى على شخص واحد . فهناك تلميذ تجرأ ان يقول إنها لم تكن خضراء بل سوداء! وقد ضبطت الحجة في حوزته بخط يده! إذا كان مصابا «بعمى الألوان»، فلا يجوز أن يكون ذلك على حساب المسيرة !..

ملك الظلام

ظلت الشهور والسنوات تمر علينا ببطء شديد . وبات أملنا في الخروج من هذا الجحيم يتضاءل مع مرور الزمن ، حتى تعودنا على حياة السجن ، وصار فكرنا حبيس دائرة ضيقة . لذلك انصب جل اهتمامنا على الدراسة والإنتاج الفني ، كرد فعل عاطفي على المعاناة ، إضافة إلى تتبع أخبار العالم ومجريات أحداثه المتسارعة .

كانت الحرب بين العراق وإيران من ابرز الوقائع التي ميزت تلك المرحلة من التاريخ . حرب مدمرة ، أزهقت خلالها الآلاف من الأرواح البشرية ، وتكبد فيها الجانبان من الخسائر مالا يحصى ولا يعد ...

ومن جهة أخرى ، بتنا نتتبع بانشغال لا يخلو من القلق ، تلك التحولات الجارية في ما كان يعرف آنذاك بالمعسكر الشرقي بزعامة «الاتحاد السوفياتي».

بدأت الإرهاصات الأولى لتلك التقلبات ، بجمهورية «بولندا»، حيث ظهرت نقابة عمالية معارضة للنظام القائم ، في مفارقة غريبة من نوعها . كان المبدأ العام أن النظام الاشتراكي تأسس لأجل الطبقة العاملة ومن أجلها . وكان المفترض أن تشكل تلك الطبقة درعا واقيا لنظام جاء ليحرر الكادحين من سيطرة البورجوازية وعبودية رأس المال . لكن خللا ما، جعل جسم الاشتراكية يتصدع، ويتسرب الوهن إلى أعماقه كما تتسرب الهشاشة إلى العظام ..

ظلت العدوى تنتشر من دولة إلى أخرى ، عابرة الحدود والمسافات ، حتى بدأت تدق أبواب موسكو ، حيث أخذت دعائم «الكرملن» في الإهتزاز .
ولعل غزو الروس «لأفغانستان»وتدخلهم المباشر هناك ، وتغييرهم لنظام الحكم ، وما نجم عن ذلك من حرب طاحنة مني فيها السوفيات بهزيمة نكراء ، لعل ذلك كان من العوامل الأساسية التي سرعت بالانهيار الكارثي «للصرح الأحمر»! حتى الصين لم تنج من تلك الرياح العاتية التي استطاعت أن تخترق «السور العظيم»!
تأججت نار الثورات الشعبية في تلك البلدان جميعها . وباتت الساحات والشوارع مسرحا للاعتصامات والمظاهرات المطالبة بالحرية والديمقراطية . ولم تجد التدخلات الأمنية بشتى وسائلها ، ولا الاعتقالات ، ولا حتى التصفيات الجسدية ، في وقف الزحف الجماهيري المتصاعد .
ووجد الغرب المتكالب فرصة سانحة للدفع بالأمور إلى الأسوإ ، من أجل القضاء على عدو بات يقض مضجعه ، ويهدد وجوده وكيانه . انقلبت الآية ، وأصبحت كفة الحرب الباردة ترجح لصالح قوى الإمبريالية و الاستعمار !..
ظل تخوفنا يتزايد ونحن نسمع عن أركان «حلف وارسو» وهي تتهاوى تحت وطأة الغليان المتعاظم ، ليس لاننا أصبحنا نخشى على أنفسنا من البقاء في «جزيرتنا المنسية»، بينما العالم منشغل بالتحولات الكبرى ،ولكن لأننا صرنا تائهين وسط هذا الانقلاب في المفاهيم والمعطيات . ثم إننا أصبحنا قلقين على فقدان القوة التي ظلت بمثابة الحاضنة السياسية والفكرية لحركات التحرر ومقاومة الاستعمار . وكيف تلجأ الشعوب إلى من كان بالأمس يحتل أوطانها وينهب خيراتها ، ويدوس على كرامتها ، ويعيث في البلاد ظلما وفسادا ؟ أيحق للغرب أن يتحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها؟ أيحق له ذلك بعد ما فعله في

أمريكا وفيتنام وفلسطين ، وإفريقيا شمالها وجنوبها ؟..

على أية حال ، هو وجد ضالته في تلك الشعارات ، وركب عليها لدغدغة مشاعر الجماهير وتأليبها ، بعدما سئمت من واقع لم تحقق فيه السعادة المنشودة .. «ورب ضارة نافعة » : فقد لقيت بعض الشعوب التواقة إلى الحرية في تلك الظروف ، مناسبة لجلب الأنظار إليها ولفت انتباه العالم لمعاناة ظل الغرب يتغاضى عنها لغاية في نفسه ..

كانت بلاد «جنوب إفريقيا» نموذجا صارخا للظلم والاستبداد الممارس على الإنسان . كان هناك نظام متسلط يحكم بالنار والحديد على شعب محروم حتى من إنسيته . نظام موغل في الإجرام والعنصرية البغيضة . خرج من رحم الاستعمار، ثم ترعرع في كنفه ، وتشبع بأفكاره وأساليبه . حكامه من بقايا المحتلين الدخلاء ، الذين مكنت لهم السلطات الاستعمارية في الأرض قبيل انسحابها .أسسوا هنالك كيانا من أبشع ما عرفه التاريخ الحديث ، قائما على سحق الإنسان الإفريقي الأصيل ، وحرمانه من أبسط الحقوق ، واعتباره أقرب إلى الحيوان منه إلى بني البشر !

ظل ذلك النظام المقيت يصول ويجول ، يسبح في بحر من الدماء البريئة ، ويرقد على ثروات الأوطان السليبة ، يمنحه الغرب في ذلك الحضانة والحصانة ، دون الحديث عن المساواة والحرية وحقوق الإنسان! لم يكن أمام الشعب المضطهد من خيار ، سوى الخوض في طريق المقاومة والنضال ، من أجل انتزاع الحق المغتصب . وكان من بين مفجري تلك الثورة العظيمة أحد أخلص أبناء إفريقيا ورموز عزتها وكبريائها ، الزعيم «نلسن مندلا». أخذ مكانه في الخط الأمامي منذ البداية ، حتى تم أسره من طرف سلطات نظام «الأبارتايد». وظل يغذي بأفكاره وصموده حماسة الجماهير الملتهبة ، من داخل زنزانته الانفرادية . مضى عليه ربع قرن وهو

قابع في السجون ، دون أن يقبل المساومة ولا التفريط في قضيته . ولطالما راودوه بالحرية مقابل التخلي عن الكفاح ، فكان يفضل السجن عن حريتهم الزائفة وإغراءاتهم المهينة. كان نموذجا لكل الأحرار والمناضلين في العالم . أما نحن السجناء ، فكنا نتتبع أخباره بشوق كبير ، وكان يجسد لنا النبراس والقدوة والمثل الأعلى . استلهمنا العزيمة من عزيمته ، واستلهمنا القوة من قوته ، والصمود من صموده . وغدا نجما متوهجا يضيء سماء القابعين في الظلام ..

قفزت إذن قضية الشعب الإفريقي إلى الواجهة في خضم ذلك الطوفان الجارف ، وباتت أركان البيت العنصري تترنح آيلة للسقوط ، لما أصبح «مندلا» قاب قوسين أو أدنى من الخروج مظفرا منتصرا...

وماهي إلا شهور ، حتى تكسرت القيود ، وفتح باب ظل موصودا لسبعة وعشرين عاما ، فخرج منه بطل لا يخشى الظلام ، بل يراه ضروريا لمعرفة قيمة النور ...

ولم تكن مأساة فلسطين سوى نتيجة لمؤامرة إمبريالية صهيونية خبيثة ، حيكت خيوطها هنالك في بلاد الديمقراطية وحقوق الإنسان ، فأدت إلى ارتكاب مجازر فظيعة ضد شعب أعزل ، قتل وهجر من أرضه ، فغدا متشردا تائها في بقاع الدنيا . كانت مذبحة «دير ياسين»سنة ست وثلاثين من القرن الماضي ، مجرد بداية لمسلسل إجرامي لا ينتهي . فمنذ ذلك التاريخ ، باتت النكبات تلاحق الشعب الفلسطيني الجريح ، نكبة بعد نكبة بعد أخرى .ولم يسلم حتى في مخيمات اللجوء وفي بلدان الشتات ، كأنه لا يستحق أن يعيش إلا مطاردا منبوذا! وكانت مجزرة «صبرا وشاتلا» آخر حلقات مسلسل التقتيل الدرامي التي بلغتنا آنذاك. اهتز لها الضمير العالمي وتألم ، لكن القوى المتآمرة لم تكن لترى الأمور إلا بعيون إسرائيلية . لذلك وفرت لها

الغطاء والحماية ، وتركتها تمر كما مرت سابقاتها من المذابح . غير أن الشعب الفلسطيني العظيم ، الذي تمرس بالصعاب واعتاد أن يلقن العالم دروسا في الصمود والإصرار ، انخرط في ذلك الزخم الجماهيري الكبير ، مبتكرا أسلوبا جديدا في المقاومة والتحدي ، عرف حينئذ «بانتفاضة أطفال الحجارة». تلك الانتفاضة لقيت نجاحا باهرا ، وأربكت حسابات الصهاينة الغاشمين ، وجعلتهم يصابون بالهلع الشديد ، ويجبرون على السير مع التيار ، والتوجه إلى طريق التفاوض ، ولو بغدر الذئاب ومكر الثعالب ..

ولم تكن قضية الصحراء محل استثناء عما كان يجري في العالم . فبعد أن نقل المغرب الملف إلى المحفل الأممي ، عمل على تأكيد قبوله باستفتاء تقرير المصير تحت إشراف المنظومة الدولية ، طبقا للوائح المنصوص عليها بهذا الصدد . وعبر عن التزامه المسبق بنتائج الاقتراع المزمع إجراؤه . كما أكد استعداده لعقد لقاءات مع جبهة البوليساريو من أجل الشروع في تهيئ الأجواء وإعداد الترتيبات .وكان لاستقبال الملك الحسن الثاني ثلاثة قياديين من الجبهة بالقصر الملكي بمراكش ، دور كبير في إطلاق مرحلة جديدة ، تنسجم مع روح المناخ السائد على المستوى الدولي . بيد أن المغرب كان قد شرع في السنوات الأخيرة ، في بناء جدار رملي عازل ، يفصل بين المناطق التي يسيطر عليها جيشه وتلك التي بقيت تحت نفوذ الجبهة . وذلك ما اعتبرته البوليساريو عملا منافيا للتوجه نحو السلام ، فكثفت من عملياتها لعرقلة تقدم الحزام الزاحف نحو الجنوب . فكان الجدار مسرحا لمعارك طاحنة بين الطرفين في سباق محموم مع زمن المراحل الأخيرة ، قبيل التصديق على وقف إطلاق النار ...

هب النسيم

بات العالم من حولنا في غليان ، كأنه مقبل على عهد جديد . وبتنا نرقبه من بعيد ، ونتأمل في مجريات أحداثه المتسارعة . ولعل التخوف الذي ظل يساورنا في البداية أخذ في التصرم ، خصوصا بعد لقاء مراكش . كانت الأعوام الأخيرة قاسية عصيبة . وكنا قد ودعنا كوكبة أخرى من الشهداء : «المحجوب المديميغ، الحبيب أحمد الحسن، الناجم أحمد الحسن، جدود الخليفة ...» ولما كانت أواخر الثمانينات ، بدأت تهب علينا النسائم العليلة . لم تستطع الأسوار أن توقفها ، ولا حالت دونها جبروت الحراس وطغيانهم . بل اخترقت كل الحواجز والأبواب الموصدة ، حتى نفذت إلى أعماق نفوسنا المتلهفة ، وغمرت أنفاسنا بنفحاتها المشحونة بأريج الورد ، في عاصمة الورد .. وإذا الأوضاع تتغير في لحظة ، وكأننا في حلم جميل : تحسنت ظروف المأكل والملبس ، وباتت أبواب الزنازن مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل . وتحول الحراس إلى خراف وديعة ، بعد أن ظلوا ذئابا ضارية . وصاروا يتوددون للنزلاء ، كأنهم ما سبوا ، وما ضربوا وما أهانوا .. وسمح بتبادل الزيارات بين مختلف الأجنحة . ولم تعد مقصورة على العائلات فحسب ، ولم تعد مقيدة بأي شرط ، بعد أن كانت محدودة في عدد الزوار وفي زمن الزيارة ، الذي لم يكن يتعدى بعض الدقائق . وكان الجنود في ما مضى يعمدون إلى التضييق على الزوار ويقفون على رؤوسهم حتى تبقى

أحاديثهم خاضعة للرقابة اللصيقة . أصبحت اللقاءات تأخذ طابع الاحتفالية ، فيستقبل العواد بحفاوة فائقة ، تتخللها الهتافات والأناشيد والرقص ، وكؤوس الشاي ! لقد أصبح المعتقلون يشعرون باقتراب موعد الخلاص ، وقد لاحت بوارق الأمل هذه المرة ناصعة مشعة ، ولم تعد وهما متخيلا ولا سرابا كاذبا . أصبح السجن يغلي بالحركة الدائبة ، وكأننا في أحد تلك البلدان الثائرة شعوبها على الأنظمة المتداعية هنالك في الشرق! لم يعد السجناء يكترثون بالجنود ولا بهراواتهم التي تحولت إلى حمائم بيضاء ، كما تحولت عصي سحرة فرعون ! والحراس أنفسهم باتوا مشدوهين منبهرين أمام هذا الواقع الجديد ، بعد أن ترسخت لديهم القناعة بكون السجناء مجرد حيوانات تخضع للترويض : يباح ضربها وتعذيبها والدوس عليها...

وبما ان القبطان «صالحا» لم يعد صالحا لظروف الزمان والمكان ، فقد انسحب من المشهد فجأة ، ليترك المجال لمسؤول جديد يدير شؤون المؤسسة بعقلية تتلاءم مع المرحلة الراهنة . ولكن من هو هذا المدير؟ إنه لم يكن سوى ذلك الملازم الذي كان يفرض أن يولي المعتقلون وجوههم إلى الحائط قبل أن يقوم بدورته الاعتيادية ، في أسلوب مبتكر منه ، يرمي من ورائه إلى تحطيم معنويات السجناء وتحقيرهم. وهو نفسه الذي اشرف على إجراءات النقل ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر من «أكدز» إلى «قلعة مكونة»، تلك الليلة الفريدة من نوعها! وكان قد أعطى أوامره بقتل كل من يبدي حركة مهما كانت ، خلال الرحلة الجهنمية .. إنه لم يعد ملازما ، بل تدرج في السلم إلى رتبة رائد (كومندان) ! ولكن الرجل جاء بسياسة جديدة ، وبمنطق غير معهود . أتى ليلبي كل الطلبات ، وليمحو ما فات!. لا شك أنه كان ذكيا ، وأنه كان نموذجا لرجل السلطة القوي ، الذي يملك قدرة

فائقة على الحربائية الماكرة . فقد تحول من ذلك الجلاد المرعب ، الذي لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه ، إلى رسول سلام ، وبشير إحسان ومودة . إنما الذي فات سيادة الرائد ، أن هؤلاء «الرعاة السذج» الذين يقضي جلهم أكثر من خمسة عشر عاما تحت الأرض ، مطلعون على دقائق ما يجري في العالم من أحداث وتطورات ، ومدركون لأسباب ظهوره بهذا الوجه الجديد .. مثلما كان هو و جهازه يبدعان و يتفننان في أساليب العزل والتضييق و خنق الأنفاس ، كان السجناء يجتهدون في ابتكار وسائل لكسر الحصار ورفض سياسة الإبادة البطيئة ، وذلك بفتح نافذة على العالم تجعلهم أكثر إصرارا على التشبث بالحياة . فقد كان لاكتشاف «الناقة» أثر عظيم على نفوس المعتقلين . وكان لها دور أساسي في بعث الأمل لديهم وشحذ الهمم . ويجدر في هذا الصدد أن يعترف لقاطني «غرفة الناقة» بما قدموه من عطاء طيلة السنوات العشر التي قضيناها «بقلعة مكونة». فقد أبانوا عن انضباط رفيع ، وتحملوا مسؤولية جسيمة في سبيل توفير الظروف الملائمة لاستخلاص الأخبار . كانوا إذا أعطيت الإشارة لانطلاق النشرة ، يجمد كل واحد في مكانه ، ويحبس أنفاسه ، ولا يحرك ساكنا حتى تنتهي العملية التي قد تستغرق ساعة وأكثر . أما التنفيذ فكان يتكلف به أحد الأخوين ـ أحمد ومولاي ـ وهو في غاية الصعوبة : يقف على ساق واحدة ، ملتصقا بالحائط وأذنه مصوبة إلى ثقب لا يتجاوز قطره عين إبرة! ويستدعي منه ذلك أقصى درجات التركيز وإرهاف السمع ، لأن الصوت قد لا يكون عاليا بالقدر المطلوب ، كما أنه غالبا ما يتأثر بتشويش الحراس وهم يتحدثون في ما بينهم . ومع ذلك كان الأخوان ينقلان الأنباء بمهنية عالية ومصداقية كبيرة ... كان «الكومندان» يجهل كل هذا طبعا ، ولو علمه لأبان عن وجهه الحقيقي مرة أخرى! لذلك جاء وهو يحاول أن يوهم هؤلاء الناس الذين

أساء إليهم بالأمس ، أنه إنما «لعن الشيطان» من تلقاء نفسه ، أما الدنيا فلا زالت على حالها!.. وعلى أية حال ، فالسجناء لم يعودوا معنيين بتقلبات الجنود ومسؤوليهم . فقد أضحوا يتطلعون إلى اليوم الذي سيعانقون فيه نور الحرية ويستنشقون هواءها . كم سيكون رائعا ذلك اليوم! وبقدر ما كانت العواطف الجياشة تتأجج في صدورهم ، بقدر ما أصبحت الأيام طويلة لا تنقضي . بل بتنا نعد الساعات والدقائق !...

لم تكن تلك المرحلة الانتقالية بالسهلة على نفسية السجين . صعب أن تكون ممزقا بين جسم ظل حبيس جدران أربعة سنين وسنين حتى ألف الظلام ، ولم تعد عيناه تقويان على رؤية النور، وفكر غدا محلقا في الأجواء كالعصفور ، طليقا يسابق السحاب ، ليحط في الأوكار بين الأحباب ، مغمورا بمشاعر الشوق والأباب .. بات جو التوتر والاستعجال طاغيا على النفوس ، إذ ضاقت درعا بمعاناة طالت عليها السنون . لذلك كان من شبه المستحيل الاستمرار في جو الدراسة على الطريقة الكلاسيكية ، أي بواسطة السبورة والألواح . ولما لم يكن متاحا التكهن بالمدة التي ستمكثها المرحلة هذه ، وجب العمل على ضبط النفوس ، وعدم إضاعة الوقت في انتظار قد يطول وقد لا يطول . على ذلك الأساس ، تقرر انتهاج إستراتيجية جديدة تتماشى مع الظرف الحالي . تشكلت لجنة منتخبة ، أوكلت إليها مهمة تدبير الشأن المحلي وفقا للمتطلبات الآنية . تفرعت لجينات صغيرة عن تلك اللجنة . فتكلفت إحداها بالتنسيق مع المجموعات الأخرى وإعداد الترتيبات الخاصة باستقبال الزوار ، وأخرى أسندت إليها مهمة التنشيط الثقافي ، وثالثة تخصصت في الجانب الفني والترفيهي ..

وهكذا سطرت برامج للندوات الثقافية بدلا من الدروس المعتادة ، وأخرى للحفلات المسرحية والغنائية . وكان بعض الشبان تمكن من صنع آلات

موسيقية رائعة من أهمها القيثارات ، وكان من بيننا عازفون ماهرون ، وذوو أصوات شجية . فأصبحت اللقاءات بين مختلف الأجنحة تمر في جو من المتعة والإنصات لأجمل الأنغام وأروع الألحان ، من قلب ذلك السجن الرهيب! وبما أن الرائد ذهب إلى أبعد الحدود في إعطاء كل الأضواء الخضراء ، فقد فتح باب الانتقال من جناح إلى آخر . وانتهز المعتقلون تلك الفرصة ، فعملوا على إجراء نوع من إعادة الانتشار المحدودة ، تراعى فيها احتياجات مختلف المجموعات في ما يتعلق بعناصر الفن والثقافة وغيرها . وفي ذلك احتياط وتحسب لطارئات الزمن : فمن يدري ؟ قد يحدث حادث ، ويطرأ نكوص في الأوضاع ، وتنقطع الصلة بين الأجنحة وبعضها ، فنكون على الأقل حصلنا على تحقيق نوع من التوازن بتوزيع القدرات في مجالي التعليم والإبداع ..

نهاية الكابوس

تعاقبت في تلك الآونة لجان تابعة لوزارة الداخلية . بدأت تقوم بمراجعة لوائح المعتقلين الأحياء وتدقيقها . فكانت تستدعي السجناء كلا على انفراد ، وتستفسرهم عن أسمائهم الكاملة وعناوين سكناهم ، وأماكن اختطافهم ، وتسأل عن معلومات مختلفة أخرى . وكانت تختتم تلك الاستمارة بسؤال يتعلق بماهية المطالب التي يود الشخص أن يتقدم بها إلى الدوائر المسؤولة . وفي ذلك توجيه مغلف ورغبة في الإيعاز إليهم بتقديم طلبات العفو إلى الجهات الرسمية . بل حاول بعض المسؤولين المحليين العمل على نشر تلك الفكرة بين السجناء ، متظاهرا بإبداء النصح الجميل وإعطاء الرأي السديد . لكن المعتقلين رفضوا أن تنطلي عليهم تلك الحيلة ، وعملوا على إبطال مفعولها ، محذرين بعضهم أن العفو لا يطلبه إلا من ارتكب جرما يستحق العقاب . أما نحن فلا ينطبق هذا الأمر علينا ، بل إن كل الأجرام ارتكبت ضدنا : اختطفنا ، وعذبنا وحرمنا من المحاكمة ومن المعاملة اللائقة ، وعزلنا في مخابئ سرية ، ومنعنا من الاتصال بذوينا ، وجردنا من كل الحقوق . وبعد كل هذا ، وبعد مضي خمسة عشر عاما ، يعرض علينا طلب العفو؟!..

وفي أحد الأيام ، وفيم نحن غارقون في أنشطتنا اليومية ، دخل علينا الحراس ، وهم يحملون جهاز تلفاز كبير ، وأخذوا يثبتونه في إحدى الغرف !

أمر لا يصدق ، ولم نكن نتصوره حتى في أحلامنا المكبوتة ! تجمع الجميع أمام الشاشة منتظرين . و إذا بهم يركبون شريط «فيديو»، و يشعلون الجهاز ، فيظهر الملك الحسن الثاني وهو يستقبل مجموعة من شيوخ الصحراء . ويتقدم أحدهم ليأخذ في إلقاء كلمة استعطاف واستجداء بين يدي الملك ، يطلب من خلالها العفو عن المعتقلين . وما كان جوابه إلا أن قال إنه موافق تماما ، وإنهم لو سألوه قبل هذا لكان عفا عنهم! هل كان يجب أن ننتظر كل هذا الزمن حتى يأتي هؤلاء « الوجهاء » ليطلبوا العفو عنا ؟ مهما يكن من أمر هذا السيناريو ، فالذي يهمنا نحن ، أنه بمثابة إعلان رسمي عن الإفراج عنا ، ومن أعلى سلطة في البلاد . قرار لا يقبل الجدل ، ولا يقبل التأخير!لقد أصبحنا إذن أحرارا طلقاء! كيف نتحكم في تلك الفرحة العارمة؟ يا لها من لحظة عظيمة !..

جاؤوا في اليوم التالي بملابس جديدة . أخذ كل واحد يبحث عن ثياب على مقاسه . ومن غريب الصدف أن كان من نصيبي جلباب أحمر ، تماما مثل ذاك الذي دخلت به إلى عالم الظلم والظلام، والذي قضى نحبه هناك ، بعد أن تنقل بين عدة أشخاص ، وأصابه ما أصابهم من ألم وحرمان وتآكل .. وكأن قدرا ساخرا يقول لي : «ها نحن عوضناك عن جلبابك!»، وكأنني لم أفقد سوى الجلباب في رحلة العذاب!..

انتظروا حتى جن الليل ، فبدأوا عملية النقل كما دأبوا على ذلك . ركبنا الشاحنات في هدوء واطمئنان، غير مكتوفي الأيدي ولا معصوبي الأعين! وتحركت القافلة تشق الطريق ، تاركة خلفها قلعة الموت الرهيبة كالوحش العظيم يرقد في الظلام ، وكأنها تتسلل في هدوء مخافة أن يستفيق مذعورا ، فينقض عليها من جديد ويغرز فيها مخالبه وأنيابه !.. لم تدم الرحلة طويلا كما كنا نتوقع : فقد توقفنا بمدينة ورززات ، و بدا أننا سنقيم

بأحد فنادقها الفاخرة . هكذا دخلنا إلى الدنيا من بابها الواسع ! غرف فارهة لا علاقة لها بزنازن « مكونة » البائسة ، مزينة بأثاث جميل ، وأسرة مريحة ، وحمامات دافئة ، وحدائق مزخرفة بأنواع الورد . أما قاعة الأكل فتجد بها ما لذ وطاب! والرائد يتجول بيننا كالقط السمين ، يداعب هذا ، ويربت على ذاك ، ويضحك ملء شدقيه للآخر دون عياء ولا حياء!..

وفي الأيام القليلة الموالية ، بدأت الحافلات تتوافد على الفندق لتنقل كل يوم مجموعة في اتجاه العيون . لم يبق بعد حوالي أسبوع إلا فرقة مكونة من عشرين فردا تقريبا . فتوقف مجيء الحافلة فجأة ، ومرت عدة أيام دون أن نعرف ما الأمر ، وما السبب !حتى الرائد الحنون اختفى عنا ولم يظهر له أثر! ما الذي جرى حتى تعطل القطار يا ترى؟ هل حدث طارئ جعلهم يتراجعون في قرارهم ويوقفون إجلاء ضحاياهم ؟ هل نجا المحظوظون بأنفسهم وبقي التعساء المنحوسون؟ هكذا طفق التوجس والريبة يتسربان إلى النفوس السقيمة، وقد تعودت على الصدمات المخيفة والعودة إلى الوراء!..

بعد أيام من الانتظار المهين والقلق المؤرق، وصلت الحافلة أخيرا! لكن الجو السائد لم يكن يوحي بأن الأمر طبيعي . فقد كان الفتور يخيم على معاملة الأفراد القلائل، الذين بقوا من الحراس في مصاحبتنا وقد نزعوا بذل القمع، وباتوا يختبئون في لباس مدني، كأنهم مجرد نوادل تابعين للفندق . ولما أخذنا أماكننا داخل الحافلة وهمت بالإقلاع، سألنا المرافق الوحيد الذي صعد معنا ، عن الوجهة التي نحن آخذوها، فأجابنا بتردد ظاهر: « ربما الرباط!». الرباط؟! بعد أن اعتقدنا أن مسلسل المعاناة قد أشرف على النهاية ، واننا تخلصنا أخيرا من عذاب الأعصاب، ها نحن نعود مرة أخرى إلى مرحلة مجهولة المعالم ، ونوجه وجهة غير التي نريدها! أخذ اليأس

والتذمر منا مأخذا عميقا ، وبتنا نمج هؤلاء الذين يقررون فينا ما يشاؤون ، غير آبهين بما يسببون لنا من ألم وتوتر!

كان الليل قد أرخى سدوله لما انطلقت بنا الحافلة من ورززات . بعد ساعات طويلة من المسير ، أصبحنا على مشارف مدينة الرباط ، وقد تفتحت عيون الصبح ، وبدأت الحركة تدب في شوارعها الفسيحة . عرجت الحافلة نحو اليمين مودعة الطريق السيار القادم من الدار البيضاء، ولم تفتأ أن ولجت بوابة المركب الرياضي « الأمير مولاي عبد اللّه .» وإذا بنا نحط أمام فندق داخل المركب يحمل اسم «فندق الأبطال» . لا شك أنه مخصص لإيواء الأبطال الرياضيين. ولكن ، أي رياضة كنا نمارسها نحن حتى نخوض غمار السباق مع أبطالها؟ لربما هي رياضة الصبر على الأذى ، وتحمل الآلام والذل والحرمان في سبيل البقاء قيد الحياة؟..

قضينا بضعة أيام في ذلك الفندق دون أن يزورنا أحد من المسؤولين ، ودون أن يشرح لنا أي كان ماذا نفعل وإلى متى نحن هنا . ونزلاء الفندق من الرياضيين لم يكونوا يشعرون حتى بوجودنا ، رغم أن حضورنا بينهم كان يشكل لوحة «كاريكاتورية» غريبة! ولكنهم كانوا منهمكين في تداريبهم واستعداداتهم لحصد الميداليات! إلا بطلة جزائرية تنبهت لأمرنا وتعرفت علينا وأخذت تزورنا من حين لآخر، بعد أن اطلعت على حكايتنا الطويلة ... نحن لم نكن ندري أشرا يريدون بنا أم خيرا في تلك الوضعية الغامضة . بل كنا نرجح الاحتمال الأسوأ ، نظرا لغياب أي معطى من شأنه أن يبعث على الثقة والإطمئنان . لذلك ارتأينا أن نتخذ بعض الاحتياط بإعطاء البطلة لائحة بأسمائنا ، حتى إذا تم إخفاؤنا من جديد ، تكلفت هي بإبلاغ الرأي العام أننا مررنا من هناك ...

وفي أحد الأيام ، وبينما كنا نستعد لتناول طعام الغداء ، دخلت علينا

مجموعة من العمال الصحراويين ، يتقدمهم أحد كبار المسؤولين في جهاز المخابرات . أخذ المسؤول الكبير يلقي خطابا ظاهره العفو والتسامح ، وباطنه التهديد والوعيد. تحدث عن اندحار الشيوعية وأنصارها وأتباعها ، وأهاب بالحاضرين أن يتخلوا عن الأفكار التي يحملونها، إذ لم تعد صالحة لشيء وانقضى زمنها ! ثم نبه إلىأن عيون الدولة مفتوحة دائما ، و أن يدها ستبقى طويلة ، و ستمتد إلى كل من سولت له شياطينه التطاول على مؤسساتها وثوابتها .. وتعاقب بعض العمال يتحدثون في ذات السياق ويبدون النصح والإرشاد . ثم تكلم بعض المعتقلين ، فالقوا الضوء على ما مورس ضدهم من أفعال شنيعة ، وعلى المدة الطويلة التي سلبت من حياتهم بدون وجه حق ، مطالبين بإنصافهم ورد الاعتبار إليهم ...

انفض الجمع ، وبدأنا نشد الرحال إلى الديار . كانت النفوس تتحرق من الشوق والحنين إلى لقاء مع الأهل والأحبة ، كان حلما يراودنا طوال تلك السنين ، وبتنا نمني النفوس بتحقيقه في يوم من الأيام ..

غير أن أسئلة محرجة ظلت معلقة في القلوب ، بدأت تطرح نفسهـــــا بإلحاح : « ترى كيف هم الآباء والإخوة والأصدقاء؟ من بقي منهم في الحياة ومن غادر هذه الدنيا البائسة؟ ».. ظلت تلك الهواجس والأشجان تعوق اكتمال فرحتنا وتزيد من توترنا ، ونحن نتأرجح بين الخوف والرجاء ، والحافلة تطوي الأرض طيا ، سائرة نحو الجنوب ..

كانت شمس صباح الفاتح من يوليو من سنة إحدى وتسعين ، تشرئب من وراء الجبال ونحن داخلون إلى مدينة «كلميم». أحسست بفرحة هائلة تغمرني لما بدأت الحافلة تعبر الشارع الرئيسي ، إذ تقاطرت الذكريات وعادت بي إلى الأيام الجميلة، حيث كان اللهو واللعب، وأحلام الصبا وتطلعات الشباب .. وبعد توقف لبضع دقائق كان لي فيها حديث رقيق مع

البلدة الرائعة ، التي أخذت حيزا واسعا من القلب والوجدان ، واصلت القافلة رحلتها في اتجاه العيون. وظلت العيون شاخصة إليها والقلوب راعشة، حتى كانت الساعة الثانية زوالا، حيث وصلنا نقطة النهاية!وإذا جموع الأهل والأصحاب يحتشدون في مشهد فائق الروعة . استقبلنا بالأحضان ، وكان العناق حارا بقدر ما كان الفراق طويلا مريرا . وامتزج الضحك بالبكاء ، واختلطت المشاعر والأحاسيس، حتى أصيب البعض بالذهول وبات يسأل نفسه : « هل نحن في حلم أم هي الحقيقة؟ »!

مضت أيام عديدة تبدت لنا فيها الدنيا مزينة بألوان الورد. بدا الأمر وكأن كل الآمال تحققت في لحظة واحدة! كيف لا ونحن قضينا آلاف الليالي في ظلام دامس ، لا يظهر فيها القمر ، ولا يصلنا نسيم الصباح ، ولا نرى الأفق ، ولا يحق لنا الكلام إلا بصوت خافت ، ولا نعامل إلا كما تعامل أحقر الكائنات ، محشورين مع القمل والجرذان! ! صحونا إذن من الكابوس المفزع ، وفتحنا أعيننا على الكون الفسيح ، وظننا أنها السعادة كلها ، وأن كل شيء جميل . لكن سرعان ما تبدد الوهم الكبير ، ليبرز الواقع مرا علقما ، وتبرز الحياة موحشة مقفرة! فإذا نحن تركنا الشباب وراء ظهورنا ، وضاع منا ربيع العمر بأزهاره وثماره . تجاوزتنا فرص الدراسة والعمل ، وبتنا عاجزين عن اللحاق بركب مر مسرعا ، لا ينظر إلى الخلف ، ولا ينتظر من تخلف . والسلطات التي رمت بنا في هذا الخضم المتلاطمة أمواجه لم يكفها ذلك ، بل ظلت تلاحقنا كالظل في كل مكان ، متمادية في زرع الأشواك من حولنا ، ونصب الفزاعات والأضاليل ، حتى تنكر الأقارب والأصدقاء ، سوى بعض الأوفياء المخلصين . وغدا الواحد منا مبعث شؤم ونفور على محيطه ، يشار إليه بالأصبع أينما حل ، مثل ذلك الطفل المسكين الذي حكت عنه إحدى الروايات العالمية ، لم يكن له من ذنب سوى أنه صار يتيما ولم تعد له أم تأخذه إلى

حضنها لتحميه من أيادي الشر ، فكادت له الذئاب البشرية ـ لغاية في نفسها ـ مكيدة جعلته منبوذا بين أقرانه ، إذ كتبوا على ظهره : « احذروه ، إنه يعض!» فصار الأطفال يفرون من حوله وينفرون مرددين :

ـ احذروه ، إنه يعض ! !...

الجزء الثالث
بوح الجراح

هذه مجموعة من المحاولات الشعرية كنت قد أنجزتها إبان الاعتقال و لولا تلك الظروف القاهرة و المعاناة المريرة ، لما كنت تطفلت على الفن المنظوم . و في الحقيقة ، لم أكن أعتبرها سوى مجرد إفرازات لمشاعر الغبن و الإحساس بالقهر و الحرمان ، و تمرد على الممارسات المشينة التي كنا ضحيتها طيلة تلك السنوات .

آمل أن يرقى بعضها - إن لم تكن كلها - إلى درجة الشعر الملتزم ، و إلا فأرجو من معشر الشعراء أن يعذروني على الجراءة ، و يغفروا لي أن كنت في حالة من الهذيان...

في سجن أكدز

يا للتعاسة ، والشقاء والكمد ... من واقع موجع للقلب والكبد !
في سجن عار يموت الأبرياء به ... بالجوع ، والمرض الفتاك والنكد
صاغت ليالي الأسى جدرانه فجعا ... كأنه للأسى مستودع أبدي !
والعيش فيه حثالة تعد قرى ... قد لفها صدأ في الليل دون غد
تأبى الكلاب عروجا صوب ركنتها ... قد آثرت نومها بالجوع والمدد
في كل زنزانة تجمعت نفر ... ترجو هواء وراء الباب لم يرد
ملقون في الزمهرير القاتل ازدحموا ... والسأم في دمهم نار ، وفي الخلد
إن يشتكوا ألما لقوا زبانية ... قد أتقنوا لغة الكلام بالعمد
و سبهم عزلا بالقهر قد غلبوا ... ما حول أعزل غير الصبر و الجلد
أضناهم البؤس فاستحال حالهم ... يبكي بصب الدموع عين متئد
تورمت منهم الأطراف موجعة ... تحفها الكدمات السود بالعقد
و الجسم قد نحلت منهم بقيته ... و الشعر صبغته السواد لم يعد
إن يخرجوا للفناء يزحفون تقل : ... "أمواتنا بعثوا ـ عجبا ! ـ من اللحد"
أثوابهم رقعت كأن ألم بها ... طوى ذويها الذي يبدو على الجسد
و القمل يتخذ الأسمال قاعدة ... يؤذي ضئيل دم للقوت مفتقد
و الموت يترك للآلآم مهلتها ... حتى تسيء إلى الأرواح بالأمد
فيختم النتن و الإسهال شقوتهم ... موت الفظاعة لا ينال من أحد!
قد جاز للأرض أن تهتز غاضبة ... سخطا على ما حوت في هذه البلد
و لتبك كل حنون منذ أن وضعت ... عل النحيب يهيب محنة الولد!

نذير في السعير

عدمت الأظافر إن تفلتي ... إذا انبلج الصبح يا قملتي !
دعيك تنامين ريى دما ... لسوف تؤدين بالجملة
أما كنت تخشين وخز النهى؟ ... أما رق قلبك من حالتي ؟
دمي امتصت الخطب أوفره ... و ما زدت طينا سوى بلة !
فآليت أن تحرميني كرى ... يخلصني من بكا مقلة
و كان بودك أن تشفقي ... علي ، و أن تندبي علتي
و نحن كلانا غريب مشى ... و تجمعنا وحدة الرحلة
و لكنك اخترت أن تهملي ... جميل المودة في سلة
غياهب ليلي تبدت جنو ... نها عند باب مخيلتي
تذيق فؤادي صنوف الضنا ... و أنواع هم ، فما حيلتي ؟
جرى دمع عيني لطول النوى ... عن الأهل و الصحب و الخلة
فتبا لشر جنت يده ... علي بريئا بلا زلة
زمان العذاب تنبه ، كفى ... لقد حان صحوك من غفلة ! !

مومن المظلوم

جاروا عليك فما رقوا و لا اتزنــوا
و دوا لو ابتكروا الأعذار، بل أذنـــوا
يا كادحا عضت الأيــام غرتـــه
ما أنت ممن أتوا بأسا به سجنـــوا
براءة القلب في عينيك صارخــة
و القول يدعمها ، و الفعل مقتــرن !
تصارع الفاقة الهوجاء في نصب
رحالة في الفلاة ، خانك الزمـــــن !
ما ظنك الأرض دارت حول محورها
يوما ، و لا حول شمس جريها مـرن
شرط الحياة التي أقحمت غمرتها
خبز له مــورد في الغابة الثمـــن
ماذا جنت راحتــاك إذ تمزقتــا ؟
و الوجه سوده الإمـلاق و الشجـــن !
و الظالمون رموك في زنازنهـم
حتى طواك الردى ، تبا لهم ، لعنوا !
فأين يمضي جياع بعدك اغتربوا
و أنزلت بهم الأهـــوال والمحـــن ؟
و طفلــة بقيت في السوق حائـرة
مـن حيث قد خطفوك ، سرهم علن !
لم يبد لائمة هناك من حضــروا
كأنهــم ما رأوا سطــوا و لا فطنـوا !

ما بال عين السماء لم تبن شزرا
أم مالهـــا ، ويحهـــا ، عيـن و لا أذن ؟
و الأرض ما هالها وضع تبوء به
و الظلم فيها مقيم ، راقـه السكـــن !
ليس الغريب الذي قد بان موطنه
إن الغريب الذي في أرضه دخـــــن !

حبيبتي وردة حمراء

حبيبتي وردة حمراء ، حمراء
حبيبتي ذات سحر الخد ، فـــــــراء !
تفتقت بكرة في مهجتي ، فشفى
حلولها مهجـــة أودى بها الـــــــداء
ما كنت أدرك كنها للهوى ، أسفا
كم ضاع من عمري و الحب نعمـــــاء !
أضحيت أنسي بها ما كان من شجني
يا ما تضيق من الأشجـان حوبـــــاء !
بهيجة وردتي ، والعطر تبعثه
و فـي لـذاذتهـا للخمـر أسمـــــاء
كالشمس إذ حزن الوداع أودعهـــا
زي الوداعة لا تضويـــه أزيـــــاء !
كأنها البدر لما كان مطلعـه
فيه الوقـار ، و فيه السحـــــــر لألاء !
كالنار ليلة قدر توجت علما
هديا لمن هو في الإدلاج مشـــــاء
الحب يا وردتي حسبي فكل دمي
أهديه في الحب لو يرضيك إهـــداء !
ماذا يضر إذا أنضبت واديه
في ما يزينك ؟ و المحب معطـــــاء !
ليس الشهيد الذي يموت من شغف
بل الشهيد له في الحب إحيـــــاء ! !

القنديل المنتحر

الغيم ، و الديجور ، والضجـــر
و الهول ، و الأشباح تنتشـــــر
في وحشتي ، سوداء مروعـــة
تمشي على عيني ، فتنفجـر !
بالدمع ، كالبركان تقذفـــــه
يعلـــو ، فيهوي ثم ينكســـر
فوق الأديم الغث تلذعنـــــي
أشلاؤه ، وكأنها الجمـــــــر !
و الليل دارت بي عباءتـــــه
دهماء ، و القنديل منتحـــر
أهذي بخل حبه علـــــــــم
في خاطري ، و الرسم مندثر
حاكت عليه العنكبوت خيـــا
ما رثة ، و نسيجها قـــــذر
إذ فرقت بيني و طلعتـــــــه
ست من السنوات تعتبـــــر
تمشي سلحفاة على مهـــــل
قد عاقها في سيرها الوعـر !
فتسارع الأشواق تمخرنـــــي
و تواصل الدمعات تنهمـــر
و أحس أن القلب مرتعـــــش
فأخال أن الروح تحتضـــــر

إن تنقطع غيبوبتي ، عجبـا !
لاح اصفرار كان يستتـــــــــــر
لما أصدقني أرى قبســـــــا
إلا إذا الأشباح قد هجـــــــــروا !
و إذا المنى تختال عائـــــــدة
و إذا الدجى ، فرسانه اندحـــروا !
"مرحى و أهلا بالبشير بـــــدا
كيف الخليل ـ أقول ـ يا قمـــر ؟"
أهدى إلي الحلو صورتـــــــه
و أجاب : "كن بالروض تنتظـر
فهناك سوف يكون موعـــــده
معك الصباح ، و سوف يعتـذر!"

أو تذكرين؟

أو تذكرين البئر و المستنقـــع ؟
و لقاءنا من غير أن نتوقـــــــــع ؟
و الشمس همت أن تزيح خمارها
لتبين سافرة أديما أنصـــــــــع
و نزعت عنك الثوب ثم رميتــه
فرمى به شيخ الأئمة ، هل وعــى ؟!
فتكت به ساق يحير حسنهـــا
و رشاقة ، و النهد طاب و أينـــع !
فتورط المسكين يجحد شيبـــه
و تكلف الإخاء ، ثم تصنـــــــع
و خطوت في سامي الوقار تحديا
و وثبت كالسهم العظيم تضـــوع !
سباحة في الماء تخترقينـــه
غواصة ، أتممت فيه تضلعـــــا
و مليحة ، و الحسن خير مزية
لا أرتجي لسواك أن أتطلـــــــع !
..و وثبت خلفك و الحنين يهزني
فتعانقت أشواقنا ، و سرت معـــا !
ما أعظم الصدفات حين تقدمت
بلقائنا ، و الحظ حين تبـــــرع !
و اليوم إذ مرت على عهد اللقا
ء سنو فراق ، و الأسى قد رجـــع

أفلا ترين بأن نعد لموعـــــد
بمدينة الأحلام كي نتمتـــــــــع
بحلاوة الأيام بعض شبابنـــــا
يأبى الشباب بأن يفوت مضيعــا

إلهام

ربابة صوتك الساري تهـــادت
إلى أذني ، رائعة الرنيـــــــن !
و عطرك يملأ الأنفاس منـــي
و طيفك لا يزال أمام عينـــي
كأنا ما تجرعنـــا التنائـــي
كأنك ، ساعة لم تبرحينـــــي
كأن لم يدلهـــم علي ليـــل
و لم تصغ النجوم إلى أنينـــي
فساءلت الدجى : " ما خطب هذا؟ "
و خبرها لواعج نار بينـــــي
إذا نزفت جراح القيد منـــي
و قفت بجانبـــي لتضمديني
رأيت يديك تمتدان صوبـــي
لتأخذنـــــي يـداك و تكلئيني
فأسقط من أواري واشتياقـــي
على شفتيك أنهل من معينـــي
و أسجد في خشوع لا يضاهى
لأطبـــع منك واسطة الجبيـــن
فتجمع وجنتاك الورد طـــرا
و تبتسميـــن بسمة ياسميـــن
فتنقشع الهواجس في خيالـي
و تحتشـــد البشائـر في يقيني !

لكم آنست في عينيك سحـرا
غدوت أرومه فغوت سفينـــــي !
و تاه بنا دليل الحب تيهـــــا
علـــــى ألا يعـود بنا لحيـــــن
و ماذا في الوجود سوى حبيب
يهام به و ينطق بالحنيـــــــن ؟
فكيف تنال من شغفي قيود؟
ألا إن القيود لفي جنـــــــون ! !

ضيف الفردوس

بروحك طافت غيد حور كواعــــب
كحيلات أطراف ، لهن حواجـــــــب
رقيقة شكل زينتهن رسمهـــــا
على الصفحات البيض ، و الفحم كاتب
يمطن شفاها عن بنات لـــــدرة
و يهززن أردافــا ملاحا تغالــــــب
خطاهن وقع ، و اختيال منمـــق
و يجررن شعرا للحضيض يصاحـــب
تبعثره النسمات عند هبوبهـــا
كطفل لأهداب الحرير يلاعـــــــب
فتبرز أعنــاق تشع ملاحـــــة
تخـال سيوفــا بالرقـاب تطالــــب
و طفن بك الفردوس عبر رحابها
يرينــك ما يزهـــو و ما هو طائـــب
حدائق من عذب الفواكه زينـــة
و أنهار خمر ، و الكؤوس كواكـــــب
و روح وريحان ، و ورد مفتـــح
و ظـــل ظـليــل لا يــراه مشاغــــب
و بثت زرابي ، خللت بزخـــــارف
بديعـــة ألـــوان ، بــدت تتجـــــاذب
ترى الشهداء الغر والحور حولهم
يمرون أفواجـــا ، ونعم المواكـــــب !

تحيي ظباء في المروج جموعكم
و أنغام طير ، في الغصون مراحـــــب
فمنزلة الفردوس أنتم قطينها
و من غيركم في الناس أهل مــواظب ؟
أيطمع رهبان حلولا بأرضها ؟
و ما بذل الرهبـــان جهدا يناســـــب !
أضاعوا سنيهم في الدعاء تقربا
و ما عرفــوا للّه كيف التقـــــــارب !
لأن صحيح الزهد زهد مناضل
تــراه بأيــام الشبــاب متاعـــــب
فيخرق أخطار الزمان بجأشه
ليسقط مغوارا فتيا يحـــــــــارب
و إلا فللأسوار يترك جلـــده
و ما خلفه طيف الضمير يعاتـــــــب
فحمدي ، سلام من رفيق مبجل
عليك ، و إني في اللقاء لراغـــــب !

وداعا أيها القمر!

يا باعثا بالفؤاد بذرة الشغـــف
هل يختفي وجهك اللألاء ، يا أسفي!
هل تترك القلب للأسى يمزقه؟
وتنثنـــي هكذا ، من بعد منعطـف !
أديمك الغض هذا بات يلهمني
ذكرى غرام محاه الوجد من صحفي
وأذبلت زهرة السراء نائبـــة
جـاءت بها يـــد حال تافه الصـــدف
تلك التي طوحت بي ريح نقمتها
و قيدتنـــي عن الإلحاق بالهـــدف
فصرت لا حول لي ، منهار أجنحة
أمشي وأحمل اوزارا على كتفـــي !
أتيـــه خائـرة قواي من تعـــب
وأسأل الغيب عونا ، فائض اللهـــف
فلا يجيب عن التعويل منطقـــه
و الغيب يشغله الإغراق في التـرف !
ورحت أسأل نفسي حملها جلدا
و الصبر مفتاح خير ، كان في السلف..
لما تطلعت يا قمير في أفـــق
هبت جنون الأسى توا لمنصـــــرف
أبديت طلعتك الغراء باسمـــة
كأنها تحفـــة تسمـــو عن التحـف

أحييت في مهجتي أشواق مرحلة
قد كنت أحرقها بالحب في ســـــــرف
رجعت أمتصها كالطفل أصبعه
يعطيه لذة طعم غير مختلـــــــــف !
والآن إذ أنت عازم على سفــر
سلم على الربع والمحبوب من طرفي
بلغهما أنني بالرغم من عطبي
لسوف أبقى لعهدي حافظا ، و وفي!..

عفوا

عفوا إذا انزلقت يدي بيراعي
فمضت ترتب حرثها بقطـــاع
وتسوق للطرف القصي "حمارها"
لتعود تنشد موعد الإقـــلاع !
حتى اذا أتت النهاية ساعـــــة
خلت سبيـــل مطية لمـــراع
وأتى الحصاد زمانه فبدا لكـــم
أن المناجل عثرت بصـــــراع
مع يابس الأعشاب غير محبذ
ترك السنابل عرضة لضيـــاع
ما كنت معتمدا يدي لضلالة
أو ريشتـــي لتشـــذ عن إجماع
لكن ، قد امتلكت زمام طموحنا
جبـــروت سيـــدة طويلة بـــاع
تملي القوافي لا تهاب تقـــولا
و تقول لا لتستـــر وخـــــداع !
سخرت من الفكر العتيق وهمها
لقواعـــد العلم الحديث تـــداع
وأثار نقمتهـــا تجـــرؤ "ســـادة"
زعموا دراية ما وراء قنـــــاع
فتظاهروا بالغيب علم أموره
ليبالغوا في نهب رزق جيـــاع !

أبت اعتناق مبادئ الحزب الذي
سمح النخاسة في ربوع بقـــاع
ليدنس الإنسان عرض أخ له
و يهينه بوسائل الإخضـــــــاع !
وأبت إباحة ما يقال أباحـــــه
عرف الجدود من احتواء متـــاع
في الأرض من طرف الأمير وآله
"وذوي السعادة" سادة الإقطاع
وأدانت الطرف الذي جعل الفتا
ة بضاعة ، للعدل غير مـــــراع
ومضت تقرض جنسها بدفاعها
عن حقه في النفع أي دفـــــــاع !
وتقول :"ما فاق الرجال فريقنا
أبدا بمقدرة على الإبـــــــداع !
لكنهم حكموا عليه بعـــــزلة
ما كان يفرضها لعمـــري داع ! "
فبحقها سلبت حجاي برقـــة
و هويت قدرتها على الإقنـــاع !

مع شجيرة المشمش

كيف آلت للبؤس تلك الرشيقة
بعد أيام في الحياة الطليقـــــــــة
بين ظهرانينا تخوض كبنـــت
دللت عند أهلها بطريقـــــــــــه
ربحت في الضراء ألف حنـــان
و بما أن كانت بدون شقيقـــــــة
مامن الابتسام غير بهـــاهـا
و الإسار المشؤوم يحكم ضيقــــه
أورقت في براءة الطفل ظنـــا
أنها في النعيم كانت عريقـــــــة
فترامت غصونها في ازدهــــاء
توجتها البراعـــم المستفيقـــــة
والعصافير آنست كل أمـــــن
فاعتلت هاتيـــك الفروع الرقيقـة
جعلت منها ناديا للملاهـــــي
و روت أشعار الوجود ، نسيقــــــة
إنما ديدن الزمان جفـــــــاء
كيــف تبديــل سنــة أو خليقــــــة ؟
جردتها صراصر عاتيـــــــات
من فساتين السندســـي الأنيقـة
فغدت هيكلا يهول هـــــزالا
لقنتــه المأساة درسا عميقـــــــة
قلت لما رأيتها في اكتئاب :
"بعض صبر،لا تحزني،أي رفيقـــة !

فخريف الحسان مثلك يمضي
و خريفي لا ، لن يغيب دقيقـــــة !
أوصلتــه الآلام قبـــل أوان
فجرى في ذقني يشق طريقـــــه
بعد أن أرسى بالفؤاد قروحا
يستحيل اندمالها في الحقيقـــة !
لكن اخترت أن أكون صبورا
فأجاري وسط الجحيم حريقـــــه
ورضيت الحظ الذي كان حظي
و أبت عيني دمعها أن تريقـــــه
أفتأسين من سحابة صيـــف ؟
كيف لو كنت في الشقاء غريقـــة ؟
فلسوف الربيع يأتي قريبـــــا
ها أديم السماء يبدي بريقـــــه
والبسي فيه أنت أبهى قشيـــب
و أنا حسبي في هناء صديقـــــه
لا تقولـي إن التملي عـــــار
بين أسوار سامقات عتيقـــــــة
هل رأيت الورد الجميل عبوسا
بائسا يخفي عطره ورحيقـــــه ؟
أولم ينـــم الورد بيـــن قبـــور
دون أن يقلى طعمه من أذيقـــه؟
ودعيني لأنقش اسمي يومـــــا
قبل بين كيما يكون وثيقـــــــة
فوق تلك الساق التي سوف تغدو
ساق أم عميدة لحديقـــــــــة
ليرى الناس اننا قد سمعنـــــا
و عصينا طير الردى ونعيقـــه !"

قهر الزمان

من جراح التشريد صاغ الحماس
شعب عـز أبـى الهـوان لباســـــا
مذ تحـراه الانجليــز فحـاكـــوا
من خبايا العدوان مالن يواســـــى
مــلأ الأرض من صــداه صليــل
و سقاهــم من فائــر الغيــظ كاسـا
وارى الإمبـــريـــال أ لا ســـــلام
و الروابـــي تشكــو إليه مساســـــا
لم يــذر في السمــاء مأمــن عـــاد
يرتجـي للنجـاة فيهـــا التماســـــا
ولتقـــل تلكـــم البحـــار قليـــــلا
كـــم جـــراها يقطـــع الأنفــــاس !
حطــم الرقم في الفداء وأعطـــــى
في الفـــداء النمـــوذج النبــــــراس !
وأذاق الدخيــل طعــم اضطـراب
كيف ينســى الدخيل أو يتناســـــى؟
لم تــزده المؤامـــرات ســـوى مـــا
زادت الريح النار فيها انطماســـــا
في فلسطيـــن يا خليــل نضـــال
لم يجد في سفر النضال قياســـــا !
وبها شعب لقن الدهر إصـــــرا
را و حزمـــا ، وهمـــة ، ومراســـــا

نطــق الحــق باسمه صارخا فــي

وجــه ظلــم فسنــه الإخــــــراس !

وأثـــار انتبـــاه من كـــان يسلـــو

عـــن تدابيـــر من تولـــى وســـاس

فصحت من عمق السبات عيـــون

لم تكن ـ لولاه ـ استفاقت نعاسا

وإذ اليوم يشعل الأرض نـــــارا

حيـــر الجـــن هولهـــا والنـــاس

يعرض الصدر للرصاص ويشدو

للمنايـــا ، تحـــرك الأجــــــراس

قد رأيت السماء تبدي خشوعـــــا

و رأيت الزمان طأطأ راســـــــا ! !

المولد العظيم

عــزز الأوتــار الشجيــة نايــا
واحــذ بالطبـل حـذوه ، مـــولاي !
واعـــزف الأنغــام البديعة لحنـا
واحــك من أشعـــار الحماسة آيا
ولتكـــن بهجـــة النفـــوس لدينـا
صــورتها بالرقــص غر الصبايــا
وزغاريـد الفـرح توشـي قرانــا
برصــاص الفتيان فوق المطايــا
احتفـــاء بمـولـد طــالمــا قــد
جســــد الشعـــب حبـه بالمنايا
وأصــرت مــن أجلـــه أمهــات
بعطــايــا الأكبــاد ، نعم العطايا !
ليس غروا إصبــاح صبـح خـلاص
كان ، ما كــان من قبيـل الهدايـا !
هــذه الرايــات التــي قــد تسامت
رفعتهـا في الغيب أيدي الضحايا
قد سمعنا الأصوات منهم تنــادي
و تحيـي الأحيــاء أزكـى التحايــا
وتقيــم الصــلاة بالقــدس حينــا
و تدانـــي تلـك الربـى والثنايــا !
يا فلسطيـــن أي بـــاق تبقـــى ؟
إن تقضت بالنصـر أم القضايــــا !

و الليالـــي تنفسـت صعـــــداء

بعدمـا عانت بؤسها في الخبايـا

وبكــت مــن مأســاة أمــة نبــل

دنستهـا بالمكـر سـود النوايـا

فتحلــى الشعــب العظيم قنوعــا

بالسجايا أكـرم بها من سجايـــا !

وجـــراح التنكيــل لم تثن فيـــه

من صمود في وجه داهي البلايـا

بل مضى حتى أركع الدهر قهـرا

فارضا بالتصميم خير المزايـــا

وقعتها الأرباب ضمن قضــــاء

و حكاها التاريخ ضمن الحكايـــا !..

على شاشة السماء

ذاق الفؤاد فأطرى عبير نسمة ذكرى
تبسمت كضياء يحول الليل فجرا
كذرة من رذاذ يرضى بها القفر قطرا
لما وقفت عشيا والشمس ترسل شعرا
منعما ذهبيا كأنه شعر شقرا (ء)
مالت به الريح يمنى وأسلمته ليسرى
وناثرته أخيرا فأومض العنق يعرى !
رأيتني أتخطى أسرا ، وأمخر بحرا
وفي هنالك أرسو بالفلك أنشد وكرا
لطالما ذقت فيه أزهى الأماني وأمرى !
شريفة القدر جنبي والروح أشرف قدرا
عانقتها ملء صدري وسرت أمسك خصرا
ورأسها عند رأسي والشوق يمنع جهرا
تأججت منه نار في الأفق تنثر جمرا
واللهب يصعد منها كأن بالكون أمرا !
لم تمض إلا ثوان أوفات عمر ومر !
لست الحقيقة أدري كيف الحقيقة تدرى ؟
... وانتابت النار صب أو ريح غاز أضر
آلت إلى حزن فحم للحزن ينصب جسرا
قد ودعتنا ذكاء والليل أسدل سترا !
وجاء حارس سجن يعطي النهاية أمرا
قال "ادخلوا قد كفاكم إلى الزنازن جرا !"
أويت والنفس ضاقت درعا بما كان عسرا
أعد أعوام بؤس ثلاثة ثم عشرا
وأمنح النصح نفسي : "صبرا فصبرا صبرا!"..

قالت لأختها

أي سحـــر أبهـــى ، وأي دلال ؟ مثل هـذا الذي حبتك الليالـــي !
يا لسعـد الزمـــان لمـــا أتـــانـا يتهـادى في طيفـك المختـال !
رب أزمـان قـد تولـت سدى ما أنجبت من حرائـر كاللآلـــي !
إن تعـد الإنـاث طـرا حسانـا شبه القـرد فجـأة! بالغـــزال !
لا ، ورب السمـاء لســن سواء أتراهـا الأضـواء مثل الظـلال؟
هـذه الحلـــي أنـت زينتهـا أم هـي كانت محـل تزيين حـال ؟
لـو فرضنـا إلغـاءهـا لم تكوني غيـر رئـم تفـردت بالجمـال !
وهـي إن فارقتـك زال سنـاهـا وغـدت أحجـارا عديمة بـال !
تـزرعين الـروح الجليلة فيهـا فتصير الأحجـار ذات جـلال !
يا لهـا من جواهـــر كثمـار علقت بالغصـون فجر اكتمال !
يا لهـا مـن قلائـد فوق صدر كاعب ، كالـورود بيـن التـلال !
شعـرك الفاحـم الحريري غطى بظـلام كونـا فسيـح المجـال !
والمحيـا بـدر أطـل وحيـى ضاحكـا عنـد ذلك الإطـلال !
هـذه فـي عينيـك صـورة أمـي لم تـزالي ترونهـا ، لم تزالي !
وأنا ، هل عرفتني ؟ عنك ما قـد زدت إلا بعـاذر مـع خالـي
اقرئـي يا أختـاه عبـر عيونـي ما انتظرنـاك في الليالي الطوال
اقرئي ما مشيت في درب يتمـي أتحـرى سمع الصوى بالسـؤال
علنـي ألقـى ناظـريك فألقـي باكتئابـي ، ووحشتي و انشغالـي
ستكـونيـن قـد لقيـت عنـاء من عسيـر المسير عبر الرمـال
فامكثـي حتى تأخذي مستراحـا و تعالي يا أخت عندي ، تعالـي !

قتامـة

فراقكــم ســام العيــون سهـــادا
وحـــول فيهــن البيــاض ســـــــوادا
يريــن لتبســـام الورود سماجـــة
و يلبســـن أبهـــى الكائنـــات حـــدادا
فمــا نضـبت وديانهــن هنيهـــــة
و لا أخمــدت نارا تذيب الفــــــؤاد
عكفت على الذكرى ألوك قشورهــا
فما زاد منها الشوق إلا اشتـــــــدادا
وهل في اجترار الذكريات تملص
من البعد والتنكيل ، والقهر ســـــاد؟
تحيط بي الأسوار من كل جانـــب
و تمتـــد في بعــد السمــاء امتـــدادا
ولا نبــأ يـرنـو إلــي بصيصـــــه
يحدثنــــي عنكــم فينعـــش زادا
مــن الأمــل المكنون أخشى نفـاده
و من أي زاد لا نخـــاف نفــــــادا ؟
وهذي السنون الحالكات مرورها
مرارتـــه ظلــت شريطــا معـــــادا
تصرفهـــا كف البخيــل كأنـــه
يـــودع أمـــوالا ، ويرثـــــــي ودادا

فيغمــر بالتقبيــل وجــه نقـــوده

و يذكــر أيامـــا له ، "والجهـــــاد"!

ألا ليت أعوام الفراق أعيشهـــــا

كما عاش أهل الكهف ردحا رقـــادا

أنام ولا أصحو سوى باحتضانكـم

و يا حبــذا حضــن يعيد ازديـــــادا

لبـذرة نبت بات جــدب يميتهـــا

فعانقهـــا مـــاء يجـــر سمــــــادا !

قصة العروس السمراء

خريدة تزدهي في الدر والحلـــــل
سمـــراء تفتننـــا بالغنـج والكحـــل
و الثغر بسمته للبدر مخجلـــــــة
يأيها البدر ، إن الشمس في خجـــل
و وجه كحلـة إذ تبـــدو شحوبتـــه
فتلكـــم الغيرة الحمقـاء من كحـــل!
قالـت لذاكـرة التاريـخ تسعفهـــا :
" أنا التـــي صعدت روحي إلى المثل !
أنا التـــي طالما السلطان راودنـــي
بالفسـق في طعـم النبيـذ والعسـل
و مـد لـي يـده الحمـراء راجفـة
يشكـــو التهيـم والغـــرام في وجـل
فما اغتررت بما يدعوه من ولـــع
و قـد يبيت مكـــر النـاس بالحيـــل !
أدركـت أن لـــود الذئب علتـــه
إذا يبيـن صفـــات الـــود للحمـــــل
فمـا عشقت سوى أحداق عنترتي
لمـا دعانـي للوصـال فـي أجـــــل
وغاب يقصد نار الحرب يأمرها :
يا نار عمـي على العداة واشتعلـي!"
إنـي لعنتـرة المغـوار واعـــــدة
لبيـك يا فارس الفرسان ، يا بطلي!"..

...ومرت السنوات الكثر قاسيـــــة
مـن دون أن تذعــن السمراء للملـــل
ظلت على عهدها في الحب تحفظـه
في لوح مهجتها المحفوظ من خلـــل
... وجاء صاحبها من طول غيبته
جـــذلان، أعينـــه تشـــع بالأمـــــل
فأطلقـت ملء فيها صوت زغـردة
تلقـــي بهـا وسـط وابـل من القبـل
و ضمهـا في عناق طـــال طائلـــه
تحكـــي حرارتـــه مــرارة العـــــذل
فأذرفت دمعـات الفــرح غادتنـــا
و أسلمـــت قلبهـا للحــب في كســل
غنت لعرسهما الأمواج هـــــادرة
بمـا تقــص على الشطآن من زجـــل
وساقت الريح ألحانـا تجود بهـــا
رواقــص الشجر المياس في الدغـــل
سار العريسان في أرض مـــوردة
لا يحفـــلان بها من شـــدة الجـــذل
و الغانيات الظباء سرن خلفهمـــا
في موكب ، ياله من موكب جلــــل !

يونس الجديد

قبـة الكـــــون تحلـت بقشيـــب
رائـــع في زرقة ، صاف ، عجيـــــب!
مـــا رأت عينـاي صفوا مثل هــذا
كصفـاء الخمر في كـأس الحبيـــب !
سحبـت عنهـا النسيمات سحابـا
بعـد أن باتـت تغنـي فـي الهبــوب
مثلمـا يسحـب شعر عن محيـــا
سحـــره يمســح أحــزان القلــــوب
و تبدت شمس صبح اليوم ترقـــى
و تســوق النــور في خطــو رتيــب
بسمـت للصبــح لمـا غازلتهـــا
همســـات الصبــح في ود الأديـــب
و تحـاكـت بينهـا الألوان تزهـــو
و تباهـــي خضرة السهل الرحيــب
و تغنى الطير في الأغصان يطـري
نغـم الشحـرور شـــدو العندليـــب
حيرتنـــي بهجـة الأشيــاء هـــذي
و تساءلــت عـــن الأمـــر المريـــب
و تفـرسـت حوالـــــي مليـــــا
علنـــي أكشـف عن سر الوجـــــوب

لـم أزل فـي حيرتي حتى دعانـــي
صوت داع في الكواليـس مجيـــب :
"أيهـــا السائـــل ، إن السر آت
من تخوم الأرض ، في أقصى الجنوب
كل شـــيء ينشـــد العيـــد سويـــا
عيـــد ميـــلاد نبـــي فـــي القريـــب
ليس يعنـــي الأمر في المهد صبيا
إنـــه يحمـــل أعبـــاء المشيـــب
عمره سبعـــون عاما مـــع نيـــف
عبـــرة يأخذهـــا كـــل لبيـــب
و قضـــى منهـــا الثلاثيـــن تباعـــا
في دياجـــي بطـــن ثعبان رهيـــب
و قضاهـــا يخلـــص الديـــن لـــرب
قد حبـــاه العلـــم في ردع الخطـــوب
و اسمـــه "نلسن" وقد جـــاء يسوي
أزمـــة الثـــورة فـــي عصـــر غريـــب
لعبـــت فيـــه الجماهيـــر بنـــار
ثـــم ضلـــت فـــي متاهـــات الدروب
حيـــن أغوتهـــا الشياطيـــن بسحـــر
ليـــس إلا ، تحتـــه ألـــف لهيـــب !
و جـــرت خلـــف سراب سوف يلقى
بضحاياهـــا إلـــى القفـــر العصيب
فســـلام اللـــه والنـــاس جميعـــا
و تحياتـــ على القطب المنيـــب !.."

خطوط في تراب

جلس العـــم حسين في وقـــــــار
جلسة الراسخ في علم الطـــــواري
يرتـدي دراعــة من أرض عـــاج
و لثـــامـــا حلزونـــــي المـــــدار
ذقنـــــه أنبت عشبـــا ذا بيــــاض
ناصــــع ينبـــئ عن طول مســـار
و أديـــم الشيـــخ أضحـى كبـــلاد
سلكــت أوديــة فيهـــا المجـــاري
قنعــــت عينيــه نظـــارة عجـــز
طمســـت أحداقــه خلـــف ستـــار
وضـــع العكـــاز يغفـــو عن يمين
و حـــذاء فاقعـــا عنــــد اليســــــار
جلـــد كبـــش تحتـــه كان فراشـــا
اصطفـــــاه العـــم عن كل فخـــــار
وأمام الشيخ صحـــــن فيه رمـــل
جلـــب الأســـرار من همس البحـــار
مســـح الأرض وسواهـــا بكـــف
و تـــــلا آيــات ذكـــــر واعتبـــــار
و جـــرت سبابـــة العـــم بوحـــي
مـــن إلاه السحـــر في تلك الصحـــاري
لم تقف إلا إذا الصحـــن ملـــــيء

برمـــــوز كذبت حنكـــة قـــــــاري!

رفـــع الرأس وأدلــــى في هـدوء:

"أتحـــدى كـل من جـــاء يمــــــاري!

علمتنـــــي ذي الليالـــي أن علمـــي

ليس نطقــا عن هـــوى أو بخــــوار

هــــذه عاتيـــة هبـت قريبــــــــا

هــــي زلـــزال عظيـــم فحـــــذار!

غيظهــــا يقتلــع الأشجـار عنفــا

و يـــــرد الفــــوق تحتــــا لديـــــار!

إن يكـــــن بيتـــك هشـــا فسلاما!

كـــان أجـــدى أن تظل الدهر عـار!

ولسوف الأرض تشكو من جفـاف

قـــد يطــول العهد ردحـــا بـــــأوار!

إنما ، من بعـد وبـــل ، فربيــــــع

فإيــاب لانتعـــــاش وازدهــــار.."

جمـــــع التربـــــة فــي صـــرة زاد

و مضـــى يحمل أوزار الجـــواري..

في مملكة "نلسن منديلا"

خاب سعي لمن … لم يهم بالصعاب
خدمة للوطن … طعمها كالرضاب
رب هاو فتن … فتحرى العذاب

هل "بنلسن" جنون … أم إلى اليأس راح؟
إذ أبى أن يكون … خاملا في سراح
وانزوى بالسجون … في انتظار الصباح

عشرات السنين … عدها في وثاق
صامدا لا يلين … يعبد الانعتاق
بالتزام الأمين … عزمه لا يطاق!

توجت رأسه … يد رب الأسى
فاعتلى عرشه … ملكا ما أسا(ء)
والدجى حوله … معجب إن قسا !

يا مليك الصمود … والتحدي البعيد
لك فينا وجود … عند حبل الوريد
ما وعاه الجنود … وقيود الحديد !

فإليك الولا(ء) من ضحايا الظلام
جسدته القلى لعداة السلام
وجميل البلا(ء) تحت بطش الحمام

إن حماة السعير أقسموا بالسياط
والجدار الكبير: "لن يهون الرباط
أو يفوت البعير عبر سم الخياط!"

اتخذنا الجدار منبعا للأمل
فوجدنا المرار سائغا كالعسل
إذ قرأنا المسار من جدار حصل

وصنعنا اليراع من أداة الغسيل
فغدا كل راع حاذقا بالدليل
همه الإطلاع لا يريد البديل!

ونواسي المريض رغم زهد السلاح
بحنان يفيض وغذاء يتاح
وإلى أن يئيض بيننا أو يزاح!

لا نريق الدموع في وداع الشهيد
بل بحفل يروع فيه كل يجيد
فيبين الخشوع ويغني النشيد:

خاب سعي لمن لم يهم بالصعاب
خدمة للوطن طعمها كالرضاب
رب هاو فتن فتحرى العذاب!

الملف الأسود

تاريخنا المشهود ، نحن البشـــر
تملـؤه الأجـــرام ، هل تغتفـــر؟
أجرامنـــا والشمـــس لم تمحهـــا
لواحـــة فـــي عينهـــا والقمـــر
أما سكـــوت الأرض عن واقـــــع
رفـــق بنـــا ، والأم لا تختبـــــر!

هتلـــيـــر آلـــى أن يبيـــد اليهـــود
فكـــرس الهـــم لهـــا والجهـــود
و الأمركـــان أنزلـــوا قبلـــه
ظلمـــا وعدوانـــا بحمـــر الجلـــود
مـــن دون أن يقترفـــوا زلـــة
إلا لأنهـــم ضعـــاف،هنـــود!

و فـــي هروشيمـــا فقـــد جربـــوا
صنعـــا تـــراه العيـــن،لا تطـــرب!
لا زالـــت العاهـــات مـــن إثـــره
تنقلهـــــا أم،ويعطـــــي أب
يأخذهـــــا الأبناء يا للأســـى
ليـــس لهـــم عـــن أخذهـــا مهرب!

و اقصـــد بإفرقيـــا جنوبا تـــــرى
ما يجـــرؤ الإنســـان أن يـامـــــر!
يعطـــــي لجلـــد كل حريـــــة
و يسلـــــــب الحق إذن آخـــــــر
و هـــو أصيل قبلـــه موطنـــا
و هـــو سليـــــل مثلـــه للثـرى!

أمـــا فلسطيـــــن فهـــلا درى
شعـــب بها ما ذنبـه يا تـــــرى
إذ منعـــــوا أطفالهـــا والنســـاء
قهـــرا،من العيـش بتلك القـــرى
كي يسكن الصهيـــون من بعدهـم
ما أتفـــه الحـل، و من دبـــــر! !

أولـــى بنـــا يا قـــوم أن نفهـم
فهمـــا صحيحـــا واقعـــا أظلـم
فالجـــوع يرســـو،جاثما حولنـــا
و نحـــن نحتـــال لغـــزو السماء!
كـــم بائـــس مفتـــرش للثـــرى
و فوقـــه سقـــف حـــوى أنجما!

وامـــرأة قـــد فقـــدت إلفهـــا
أطفالهـــا تجرهـــم خلفهـــا
تسعـــى لتســـأل الـــورى رأفـة
لـــم تجـــن رأفـــة ولا نصفهـا !
والنـــاس تتـــرى، ولا واخـــــز
ما أتفـــه الإنســان،مـــا أتفهـه ! !

لقاء الإخاء

بعزة أمـــي ، واليمين كبيـــر
لأهـلا وسهـلا ، مرحبا يا بشيـر!
أما قـد تلاقينـا بـدرب غمائـم
و كنـا علـى درب النضـال نسيـر
و فرقـت الأيـدي الأثيمـة بيننـا
سنيـن طـوالا،والإسـار المريـر
و ذي "قلعة" الأحزان عادت بكرة
فما هـي إلا جنـة و حريـر!
يرصعهـا الورد البديـع بزخـرف
و ينفـح مـن ذات الـورود عبيـر
يحيـي لسـان الحال منه إخاءكم
و يجـزم :"أنتـم بالإخـاء جديـر!"
إخـاء لئـن مـا أنجبتـه أمومـة
فأنجبـه ذاك الجـوار العسيـر
و أيـام كنـا والكبـول تمضنـا
و كنـا ، كلانـا فـي الظـلام أسير
و نختلس الهمس المحرم عندهم
فيفعمـه الـود الكثيـر الكثيـر!
و ما برحاء الأسر كانت تسوءنـا
و لا همنـا فـي الأسـر إلا مصير
يقـرره الشعب العظيـم بثـورة
تبـارك منهـا في المصيـر ظهير!

لائحة باسماء شهداء أكدز و قلعة مكونة

1- حبوب - ميليد - سيدي علي
2- بناصر -حمدناه
3- محمد سعيد - عبيد - شعبان
4- بيرى - مبارك - حسينة
5- الديه - المحجوب
6- ابراهيم - بوزيد - الحبيب
7- محمد مبارك - سيدي مولود
8- محمد الامين - حمى
9- الشيخ - البشير - حمادي
10- حمدي - بوزيد - الرباني
11- أحمد - البشير - شرامها
12- خطاري - حبدي
13- نافع - عبد اللّه - ميارة
14- النعجة - علي - برهمى
15- علوة - الطاهر - نجيب
16- محمد ماء العينين - العروسي
17- البلال - الحبيب - البلال
18- مومن - حمدناه
19- عياد - محمد - الضميري
20- عبيد - السهيلي
21- بوبا - علي - الكوري
22- البتول - سيدي - سيدي علي

23- الهيبة - عمر - ميارة
24- المهدي - أحمد - بارا
25- الجيد - محمود - كركوب
26- شيغالي - مكيا
27- سلامة - علي - ابا الحسن
28- محمد الشيخ - محمد سالم - البخاري
29- أحمد - سويلم - الترفاس
30- السالك - عبد الصمد - بولسان
31- محمد - بدا
32- سداتي - لكوارى
33- الحبيب - أحمد الحسن
34- المحجوب - المديميغ
35- الناجم - أحمد الحسن
36- عبد العالي - بوسلهام
37- محمد الحبيب - الونات - المسيتي
38- السالك - عبد اللّه - سليكة
39- محمد - عبد اللّه - منيصير
40- محمد - سيدي العروسي - الفقيه
41- الداهي - الناجم - يحيا
42- الناجم بيدي
43- جدود - خليفة - سكيحيل

علمنا إذن أننا في «قلعة مكونة» ، عاصمة الورد! ما هذه المفارقة ؟ أيحق لبلدة تحتضن حدائق الورد البديعة ، وتستقطب عشاق الجمال من كل أصقاع الدنيـــا ، أن تخبئ في ثناياها سجنـــا يذاق فيه بنو البشر العســـف و التنكيل ، ويموتون بالجوع والمرض والإهمال ؟ هل يجوز للبشاعة أن تكون مغلفة بالوان السحر والبهاء ؟...

العزلة أصبحت القاعدة السائدة في الوضع الجديد . ولم يعد الاتصال بين مختلف الزنازن ممكنا ، إلا بواسطة إشارات خاطفة خلال مرور الأشخاص بالقرب من النوافذ ، عند خروجهم مجموعة مجموعة بالتناوب . وعادت المعاملة القبيحة من طرف الحراس الخمسة ، الذين أصبحوا ينكلون بالسجناء و يذيقونهم أصناف القمع والتعسف كل يوم . ولطالما تربصوا الفرص لينظموا هجمة مباغتة على إحدى الزنازن ، زاعمين أنهم ضبطوا أحد الأفراد أثناء محاولته الإتصال مع غرفة أخرى ، فيلحقوا به أشد العقاب لخرقه القانون المقدس! وفي الحقيقة ، هم لا يحتاجون إلى ذرائع يسوقونها حتى يفعلوا ما يفعلون : فهل ساق الذئب يوما حجة على الغنم ؟..